2271
.255
.389

2271.255.389
al-Hakīm
Sultān al-zalām

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072539123

توفيق الحكيم

سلطان الظلام

الناشر : مكتبة الاداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٢

Tawfiq al-Hakim

توفيق الحكيم

Sultan al-zalam

سُلطانُ الظلام

« ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلام »
الأنجيل

الطبعة الثانية

الناشر : مكتبة الاداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٢

2271
.255
.389

كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى اللغة العربية

محمـــــد { (الطبعة الاولى : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
الطبعة الثانية : مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)

أهل الكهف { الطبعة الاولى : مطبعة مصر عام ١٩٣٣
الطبعة الثانية : مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٤
الطبعة الثالثة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ٩٤٠

عودة الروح { (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
فى جزئين

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٤٠)

مسرحيات توفيق الحكيم { المجلد الاول . ويشمل قصص سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جسنا اللطيف .
(مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)

القصر المسحور { بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك :
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

مسرحيات توفيق الحكيم | المجلد الثانى . ويشمل قصص . الخروج من الجنة ، أمام شباك التذاكر ، الزمار ، حياة تحطمت . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

يوميات نائب فى الأرياف | الطبعة لاولى — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧
الطبعة الثانية — مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر عام ١٩٣٨

عصفور من الشرق | الطبعة الاولى — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
الطبعة الثانية — مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت شمس الفكر | الطبعة الاولى — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
الطبعة الثانية — مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تاريخ حياة معدة | مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

عهد الشيطان
- الطبعة الاولى
- مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
- الطبعة الثانية
- مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

براكسا أو مشكلة الحكم
- مطبعة التوكل عام ١٩٣٩

راقصة المعبد : مطبعة التوكل عام ١٩٣٩

نشيد الأنشاد: مطبعة مصر عام ١٩٤٠

حمار الحكيم :
- الطبعة الاولى : مطبعة التوكل عام ١٩٤٠
- الطبعة الثانية : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت بالعربية

سلطان الظلام: الطبعة الاولى : مطبعة التوكل عام ١٩٤١
الطبعة الثانية : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

من البرج العاجى : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت المصباح الأخضر : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

بجماليون : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التى نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد — ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الاكاديمية الفرنسية

عودة الروح — ترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧

يوميات نائب فى الأرياف — ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور حافظ عفيفى باشا

أهل الكهف — ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية

عصفور من الشرق — ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

تمهید

١

تأملات حول مصير الانسانية

هـذه الصفحات ليست سوى صيحات ، لا أملك غير اطلاقها فى هذه الساعات التى لا يستطيع أحد أن يتنبأ فيها بمصير الانسان الحر .

. . .

إن الظلام الزاحف على الأنسانية يخيفنى . إنى لم أزل أتأمل تلك الكلمة التى قالها وكيل خارجية أمريكا « سمنر ويلز » منـذ نحو عام : « ليس فى مقـدورنا أن نتكهن بشىء عن احتمال العودة مرة

أخرى إلى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشؤون الفكر والروح . . . الخ » إنى لم أزل أطرح على نفسى هذا السؤال : هل فى الأمكان حقاً أن يمحق الأنسانية ظلام بعد هذا الشوط الذى قطعته فى سبيل النور ؟

. . .

هل أصدق قول المفكر الألمانى « كيسرلنج » : ما الانسان إلا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية . جوهره العميق ، ذلك الذى قد يعد خالداً هو روح خالص . ولكن هنالك حقيقة تسترعى النظر ، هى أنه منذ ليل الأزمان ، والأديان ما برحت تحض على اتباع تعاليم الروح فهل صادفت فى ذلك غير نجاح قليل ، بينما كانت نوازع الأرض والدم

لا تفرض فقط سلطانها فرضاً بل تقبل أيسر القبول في شيء من الخضوع الطبيعي. هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين في المائة من المخلوق البشري تتألف من العناصر الأرضية التي تدخل في نطاق العالم الحيواني والنباتي » .

. . .

ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الإنساني . ينبغي مع الأسف أن نتوقع إذن في كل حين ثورة هذه الثمانين في المائة على العشرين الباقية .

. . .

تتمثل لذهني أيضاً صورة رسمها « جيمس روبنسون » المفكر الأمريكي ، لتطور البشرية ومدى انتقالها من عهد إلى عهد . فقد افترض أن

حياة الأنسانية منذ عصورها الأولى إلى اليوم (وهى التى تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة) تبلغ خمسين عاما فقط رغبة فى التبسيط . فماذا وجد ؟ وجد أن تسعا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية فى حياة الصيد الأولى . ولم تبلغ فى نهايتها من حيث المعرفة والادراك إلا درجة تمكنها من استئناس بعض الحيوان ونسج بعض الخشن من الثياب . أما فى السنة الأخيرة الباقية من عمر الأنسانية ، فقد كان ينبغى أن يمضى منها أيضا ستة شهور قبل أن تخترع الكتابة التى تم باختراعها وضع أساس من أسس الحضارة . ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالأدب والفن والفلسفة إلى تلك القمم التى بلغناها . ثم شهران للحياة فى ظل المسيحية . ولم

يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة واحدة . وآلة البخار غير أسبوع . ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر عرض البحار وتقطع القطر شاسع البقاع . ولم يبق بعد ذلك غير يوم واحد استكشفت فى ليلته البارحة أعاجيب الكهرباء . وأخيراً لم تبق غير ساعات معدودات كانت كافية لحذق الملاحة فى الجو وتحت الماء واستخدام أحدث المخترعات لأثارة حروب عظمى تتكافأ مع تلك الوسائل الجديدة الهائلة » ... لأتم قول هذا العالم الأمريكى قائلا : حروب عظمى قديرة أن تدمر الأنسانية وتعيدها من جديد إلى حيث كانت منذ عام .

. . .

هذا التقدير العجيب لعمر المدنية الحقيقية فى

حياة الأنسانية ينبغى أن يملأنا قلقاً على مصير الحضارة. إنها إذن ليست تراثاً أصيلا كما نظن. إنها ليست ملكة متأصلة فينا كما نحب أن نتصور. إنما هى حدث جديد لم يقع فى حياتنا البالغة الخمسين إلا منذ ستة شهور. أفيستغرب إذن إذا عصف القدر بهذا الحدث وأرجعنا إلى حيث كنا منذ عام على الأقل.

. . .

نعم. حتى حياتنا اللامعة خلال هذه الشهور الستة الأخيرة ليست فى مأمن من طغيان ذلك الخضم الهائل من عشرات الأعوام السابقة. إن ريح تلك الأعوام المظامة ما تفتأ فى كل لحظة تهب على هذه الشمعة الضئيلة التى تنمو فى ضوئها المرتجف

حضارتنا الناشئة . آه ، إن قوة الأرض والدم لمخيفة حقاً . إنها لتستطيع أن تجذبنا إليها فى كل حين كلما أردنا ارتفاعاً . !

. . .

يحلم العلم الحديث أحياناً بذلك الاختراع الذى يخرجنا عن جاذبية الأرض ، لنلحق بالكواكب الأخرى . أما ينبغى له أن يفكر قبل ذلك فى اختراع آخر أعظم وأجدى على الأنسان : ذلك الذى يخرجنا عن جاذبية الأرض والدم فى عالم تركيبنا الحيوانى ، لنلحق بالانسانية العليا التى يتصورها الفكر المجرد ويحسها الروح الطليق ؟

. . .

مادمنا نعيش هكذا تحت سلطان جاذبية الماضى

الهائل: جاذبية تسع وأربعين سنة أو (٤٩٠٠٠٠٠ سنة بالحساب شبه الحقيق) : حياة حيوانية تعيش على الفتك والصيد وشريعة الغابة ، فكيف نأمل بهـــذه السرعة فى حياة أرق تسودها شريعة غير شريعة الغابة ؟

. . .

يقول ألدس هكسلى : لا أحد يطلب إليك أن تكون شيئاً آخر غير مجرد إنسان ، أى لاملاك ولا شيطان . إنسان أى ذلك المخلوق الذى يمشى بمهارة على حبل مشدود ، عن يمينه العقل والفكر والضمير وكل ما دخل فى نطاق العالم الروحى ، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل فى نطاق العالم الحيوانى . التوازن هو كل المطلوب .

وهو أمر عسير المنال .

. . .

حقاً هذا التوازن عسير المنال . كم من الملايين وكم من الأجيال تسقط فى الهاوية اليسرى . أما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الأنبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء .

. . .

فى تاريخ الانسانية عهد صغير مزدهر هو حقا من مفاخر الانسان . ذلك هو عهد الأغريق . أترى الأغريق هم الذين استطاعوا أن يمشوا فى توازن عجيب فوق الحبل المشدود ؟

. . .

ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد

الاغريق وحده . فالحضارة الأسلامية فى عصورها الزاهرة هى خير مثال يقدم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم .

. . .

إن معجزة الأغريق فى الواقع هى أنهم لأول مرة فى تاريخ البشرية حاولوا التخلص من جاذبية الماضى . إذا ذكر الأغريق ذكر عهد ظهور التفكير الحر والتأمل المجرد . أى ذلك التفكير الذى لاتحده تقاليد ولا سلطات ولا أديان ولا حتى لغات قديمة . كان « بيرون » يقول عن الأغريق : لم تكن لديهم عصور قديمة للمعرفة ولا معرفة للعصور القديمة .

. . .

إن النوع البشرى محافظ بطبعه كما يرى

روبنسون : « فهو لايفتأ يضع لنفسه قيوداً ، هى التى أقعدته فى طور البربرية كل هـذه الأجيال الساحقة التى عاشها على الأرض ، بل هى التى ما تزال تعمل على استمرار بعض مظاهر البربرية حتى فى مجتمعنا الحديث . فالرجل المحـافظ هو على وجه عام رجل أدنى من غيره إلى الحالة البربرية الأولى » إذا كان فى التاريخ إذن شعب « غير محافظ » فهم الأغريق . إنهم شعب « الحرية » المختار !

. . .

إن العقل البشرى بلغ فى عهد الأغريق اكمال تألقه ، لأنه تفتح لهواء « الشك » . إن « الشك » هو هواء العقل الذى يتنفس به . لأول مرة استطاع الانسان حقا أن يدع هذا الهواء يعبث قليلا برفات تقاليـده

القدسة . ولأول مرة استطاع الأنسان حقاً أن يخرج بتفكيره قليلا عن نطاق جاذبية الماضى ليتأمل ويخلق بعيداً عن سيطرة الايمان بالماضى .

. . .

على أن العجيب فى الأمر هو أن البشرية التى عرفت هذا التألق الفكرى استطاعت أن ترجع بعد ذلك إلى ظلام القرون الوسطى . وتركت فضاء « الشك » لتدخل من جديد حظيرة « الأيمان » . أترى حياة الأنسانية كحياة الأنسان ؟ أتراها مثله تخرج من النهار إلى الليل ، ثم تعود إلى النهار من جديد ، ثم تدخل فى الليل مرة أخرى ، وهكذا إلى نهاية الدهور ؟

. . .

نعم ، بعد نهار الأغريق جاء ليل القرون الوسطى . لكن . . . ليس كل ليل ظلاما . فقد يخيم الظلام على أول الليل ثم يطلع القمر وتتصاعد الأحلام من جوف القلب فتملأ الوجود جمالا ونوراً من نوع آخر . كذلك القرون الوسطى ، لم لم تعرف الظلام الحالك إلا فى أول عهودها . ثم تأججت العقيدة الدينية فى النفوس واستيقظ القلب فأبدع جمالا وشعراً له مكانه إلى جانب الجمال الذى أبدعه العقل فى نهار الأغريق .

. . .

وقبل نهار الأغريق ماذا كان ؟ كان ليل مصر القديمة المقمر الجميل . كانت حضارة عجيبة كأنها أحلام العالقة ، خرجت هى الأخرى من وحى

القلب وحرارة العقيدة والأيمان .

. . .

وبعد ليل القرون الوسطى ، ماذا حدث ؟ ظهر من جديد فجر عصر النهضة وأخذ يتألق بضوء العقل . إنها شمس الاغريق طلعت مرة أخرى فى عصر النهضة ، فما عهد إحياء العلوم وبعث التفكير الاغريقى إلا نهار جديد طلع بعد انصرام الهزيع الأخير المقمر من ليلة القرون الوسطى .

. . .

أهى أستار تتعاقب على مسرح الوجود الدائر تلك القوى الخفية التى نسميها الغريزة والقلب والعقل ؟ أتراها تلعب فى حياة الانسانية الدور الذى يلعبه الظلام والقمر والشمس فى حياة الانسان

اليومية ؟

. . .

هؤلاء هم بالضبط أبطال مسرحيتى «شهرزاد» فالظلام هو « العبد » والقلب هو « قمر » والعقل هو « شهريار » . وان حركتهم حول « شهر زاد » لهى حركة الانسانية كلها حول الطبيعة .

. . .

هل الانسانية إذن تدور دوران الفصول ؟ لقد أجاب شهريار : « كل شيء يدور . تلك هى الأبديه . يالها من خدعة ! نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران ! » نعم إنها تدور دوران اليوم الكامل : ظلام وقمر ونهار ثم ظلام وقمر ونهار . . . وهكذا دواليك إلى نهاية الدهور .

. . .

إن فكرة التقدم العقلى المطرد هى من أوهام العقل . إنها سراب شمس العقل فى صحراء آمالنا الواسعة ، إن الخط المستقيم لا يعرفه غير العقل . أما الطبيعة فلا تعرف غير محيط الدائرة .

. . .

لو عرف الانسان نهاراً لا ليل له يمتد بضعة أعوام ، لعرفت الانسانية مثل هذا النهار فى صورة حضارة فكرية ممتدة إلى آلاف الاعوام لا يعترضها ظلام الغرائز ولا أحلام الايمان .

. . .

هذا النهار الطويل للانسانية لو وجد لكان محرقاً لكثير من فضائل الانسان .

حضارة اليوم الحديثة هى من غير شك نهار للانسانية . نهار بزغ فى عصر النهضة وإحياء العلوم . واستمر متألقاً بكل أشعة العقل الانسانى . إنه النهار الثانى بعد نهار الاغريق الاول .

من العجيب أنه فى كلا النهارين بدا مظهران من مظاهر التحرر لا للفكر وحده بل للمجتمع . ففى نهار الاغريق عرفت الانسانية الديموقراطية وفى نهار العصور الحديثة عرفت الانسانية حقوق الانسان .

فى ليل الانسانية المظلم أو القمر لم يعرف قط

مثل هـذا التحرر الذاتى والتيقظ الاجتماعى . أليس أن الليل مقترن بالنوم والاحلام والاستسلام . والنهار مقترن باليقظة والشعور بحقوق الذات ؟

. . .

ما بعد حضارة اليوم الحديثة ؟ ما مصير هـذا النهار ؟ أترى مصيره مصير كل نهار؟

. . .

هل نستطيع أن نتبين فى الأفق جحافل الظلام المغيرة على هذا النهار ؟

. . .

أولئـك الشعراء الذين قرنوا الظلام بالجحافل لا شك مصيبون . لاشىء يستطيع إطفاء مصباح الفكر غير يد القوة المادية. هكذا بدأ النور فى الفتور

منذ اقتربت من مصباح أثينا كف « فيليب » .

. . .

يقول الباحث الفرنسي جان روستان : إذا قدر لهذه الحضارة أن تتحطم غداً عن آخرها لكان على الانسان أن يعيد بناء كل شيء من جديد مبتدئا بما بدأ به منذ نيف ومائة أو مائتين ألف من الاعوام . فكل ما قام به على مر الدهور من أعمال وما عاناه من جهود وماقاساه من آلام لانفع فيه ولاغنى . وهنا الفرق الهائل بين حضارة الانسان وحضارة الحيوان . إن شرذمة من النمل المنعزل عن العشيرة في إمكانها أن تنشيء عشيرة أخرى تامة التكوين . لكن شرذمة من الآدميين انعزلوا عن البشرية لا يستطيعون أن ينشئوا مجتمعاً بشرياً إلا في صورته

البربرية الاولى . إن حضارة النمل منطبعة فى صميم خواص الحشرة . أما حضارة الانسان فهى ليست مستقرة فى صميم طبيعة الانسان . بل هى مستقرة فى خزائن المكتبات العامة وقاعات المتاحف ونصوص الشرائع ...

من المحتمل اذن أن تدك القنابل هذه المتاحف والمكتبات وأن تعبث يد القوة المادية بالشرائع ، وأن تضع كفها على أفواه الناطقين بالعلم ، وعلى أبصار الباحثين عن الحقيقة . فأذا حضارة الانسان قد تلاشت ، وإذا البشرية تعود سيرتها البربرية الأولى . أو لم يحدث بالفعل منذ قليل أن حرقت الكتب والمؤلفات وطرد العلماء والمفكرون (اينشتين وفرويد ومان الخ ...) ؟

مهما تكن الأسباب والظروف ، فأن مجرد إمكان حدوث ذلك فى هذا العصر لنذيراً وإشعاراً بامكان عودة الظلام .

الانسان مخلوق مؤمن بالطبع . فى كل مراحله نرى حب التقديس . فالوثنية تقديس القوى المادية . والأديان السماوية تقديس القوى الروحية والعلم الحديث تقديس القوى الفكرية .

والاسراف فى الايمان يؤدى إلى الطغيان ، والطغيان إلى الانهيار . لقد زلزل العهد الوثنى طغيان الكهنة والتيجان . والعهد المسيحى طغيان الكنيسة . والعهد العلمى الحديث طغيان الصناعة

الكبرى .

. . .

إن « الصناعة الكبرى » هى « كنيسة » العلم الحديث .

. . .

لقد أرانا التاريخ كيف أن طغيان الكهنة والتيجان فى الارض جعل الانسانية تلتمس الخلاص والحرية فى السماء . وكيف أن طغيان الكنيسة باسم السماء قد جعل الانسانية تلجأ الى الخلاص والحرية فى نور العقل والعلم البشرى . بقى أن نعرف أين الخلاص من طغيان كنيسة العلم الحديث : الصناعة الكبرى ؟

. . .

إن كنيسة العلم الحديث بكرادلتها

الرأسماليين لتتفتح أبوابها على جهنم الغرائز الأولى نعم . نحن فى نهاية الدائرة . أسوف ندور دورة أخرى من جديد ؟

. . .

يقول العالم الاقتصادى « ر . هـ . تونى » : إن كارثة حضارتنا اليوم ليس مرجعها كما يظن الكثيرون سوء توزيع الانتاج الصناعى . بل مرجعها الصناعة نفسها . الصناعة التى تبوأت مركزاً يطغى على كل شأن من شئون البشر . إن هذه الحمى الأقتصادية سوف تبدو للأجيال القادمة خليقة بالرثاء كما تبدو لنا اليوم حمى المعارك الدينية فى القرن السابع عشر .

. . .

إنه لمن المخجل كما يقول « جيمس روبنسون »: أن نخضع اليوم الحياة كلها لمقاصدها المادية على

النحو الذى كان عليه أجدادنا المتوحشون يوم عاشوا فى طور التكالب على ثمار الأشجار وجذور النبات. وجلود الحيوان » .

. . .

حقاً ، لم يعد المكان الأول فى حياة البشرية للقيم الروحية . بل لم تعد للقيم الفكرية ذاتها ذلك المكان . إنما القيم الاقتصادية هى اليوم كل شىء . القيم الاقتصادية كانت هى أيضاً كل شىء فى حياة القبيلة الأولى المتوحشة .

. . .

فلنستمع كذلك إلى قول « كيسرلنج » : الخط البارز والمظهر الغالب للعصر الحاضر هو «الاقتصاد» أى « الغذاء » أى « مطالب الأرض والدم والجنس

والبيئة » . أى أن كل شىء اليوم خاضع للشطر «غير الروحى » للكائن البشرى . . . هذه الحضارة ما كانت تستطيع أن تنتهى إلا إلى هذه النهاية « غير الأنسانية » مادامت تؤدى على هذه الصورة المخيفة إلى سيادة الآلة على الحياة ، وإلى طغيان الحساب والأرقام، وإلى تقويض كل سلطان إلا سلطان الكم والعدد . . . إن روح هذا العصر (الصناعى الاقتصادى) هى روح الكتل من الدهماء والسواد . وعصر السواد والدهماء هو فى الحقيقة عصر الزعماء . فالكتل لا تعمل أبداً بذاتها . إذ كلما كثر العدد احتاج الأمر إلى تنظيم ومنظمين . وأصبح المنظم أو الزعيم هو القابض على زمام القطيع . وهكذا تمنح السلطات شبه المطلقة لمن ينظم الملايين . وهولاء

الزعماء المنظمون هم دائماً من طراز «المروضين» لامن طراز « القادة الروحيين » . والمروض هو من يؤثر فى تابعه عن طريق « الايحاء » مجبراً إياه على طاعته دون أن يشعره أنه قد سلب إرادته ...

. . .

نحن إذن فى طريق العودة إلى المجتمع البشرى الأول الوثنى ، حيث كانت الجموع تخضع لسلطان الرجل القوى الذى يستطيع تخدير أحلامها والتأثير فى أعصابها .

. . .

ما دمنا فى عصر الزعماء (المروضين) فلن يكون هنالك محل للكلام فى الحرية . لأن المروض سجان قبل كل شىء .

. . .

هنا السر فى أن الزعماء المروضين يضطهدون (الأديان السماوية) لأنهم يريدون حبس جموعهم داخل تلك الحظيرة التى يسهل فيها التأثير فى أعصاب القطعان : حظيرة الغرائز بسياجها المفتول من (الوطنية والجنس والدم) . ولما كانت الأديان تحارب الغرائز وتسعى إلى إطلاق الناس من هذه الحظيرة إلى فضاء الأنسانية والأخاء الآدمى ، فقد عدها المروضون أخطر خصم لمآربهم .

. . .

هنالك سبب آخر لرغبة الزعماء المروضين فى صد جموعهم عن الأديان : إنهم لا يريدون لجموعهم أن تقدس شيئاً آخر غير الزعيم . إن شخص الزعيم

هو الذى حل وينبغى أن يحل محل الدين فى قلوب التابعين . وتلك هى العودة إلى الوثنية .

. . .

كذلك يمقت الزعماء المروضون العلماء والأساتذة والفلاسفة وأصحاب التأمل الطليق والفكر الحر ممن يدينون بمبدأ (العلم للعلم) أو (العلم للأنسانية) ، ويرونهم غير جديرين بالبقاء إلا إذا خضعوا لمبدأ (العلم للوطن) أى العلم فى خدمة الجيش والعسكرية والاستعباد وسيادة الجنس والدم.

. . .

لقد سألنى سائل ذات مرة عن مبدأ (العلم للوطن) فقلت :

« لايمكن أن يكون العلم للوطن ولاالشىء آخر

فى هذا الوجود . إنما العـــلم لنفسه . فهو المعرفة الخالصة والرغبة المحرقة فى استجلاء كنه الأشياء . وإن العلم إذا اتخذ له غرضاً غير نفسه تغيرت فى الحال صفته ولم يعد يسمى علماً ، مهما يكن الغرض الذى يتجه إليه نبيلا . فالعلم قبس من نور الله . وليس لله غرض إلا ذاته المطلقة .

ولكن تطبيق العلم أو العلم التطبيقى شىء آخر فأن للوطن وللصناعة والتجارة الخ .. أن تستفيد من نتائج العلم وتستخرج منهـــا المنفعة التى تريدها . فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم . إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى . أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا

العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة . وان للعلم ككل شيء فى هذا الوجود أوقات علو وأوقات انحطاط . ولا ينحط العلم إلا فى وقت ترغمه فيه قوة غاشمة على السير فى طريق مرسوم لمصلحة وطنية أو مالية . فالعلم طائر حر كالشعر . ومن قرأ تعريف (اينشتين) للعالم الحقيق أدرك تمام الادراك أن حياة العلم لا تكون إلا باطلاقه فى جو الحرية المطلقة . والعلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا . لأن الوطنية هى الأنانية فى المجموع . والأنانية عمياء . والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء . فمن أراد من العلم أن يعيش بنصف عين كى لا يرى غير مصلحة دولة واحدة وجنس واحد فهو من غير شك قد مسخ (العلم) (قرداً) يمشى ويرقص تحت عصا

مروضه .

. . .

كل فكرة متصلة بفكرة (الدولية) متجهة الى (الأنسانية) مبشرة بالسلام ، حاضة على (اللاعسكرية) هى خطيئة الخطايا فى أعين الزعماء المروضين .

. . .

تلك هى أعنف صدمة هزت نفسى فى السنوات القلائل التى تلت الحرب الكبرى الأخرى . لقد كنت ممن يؤمنون باطراد التقدم الأنسانى . لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب فى جمعية الأمم والسلام ، وأطالع آراء ماركس وتلاميذه فى (الدولية) و (اللاعسكرية) . لقد كنت غارقاً أنا أيضاً فى تلك الأحلام التى نسجها لنا هداة البشر

وقادته الروحيون من الرسل والشعراء والمفكرين .
لقد كنت موقناً بأن الأوان قد آن عقب تلك الحرب لزوال الحواجز بين الأمم والأمم ، وانقضاء عهد القبائل الوحشية المتنافرة التى يسمونها اليوم (دولا) تغير إحداها على الأخرى ، مدفوعة بمطالب الأرض والدم والجنس ، واتجاه البشرية أخيراً إلى تحقيق ذلك المجتمع الأنسانى الأعلى الذى يجعل من سكان هذا الكوكب أخوة أحرارا . لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردعت البشر . لكن ... وا أسفاه ! فوجئت بما هالنى : لقد ارتدت البشرية بغتة إلى الوراء ، وإذا من كنا نحسبه إنساناً متحضراً آخذاً بأسباب السمو قد عاد يصيح صيحات الغابة ، معلناً العودة إلى غرائز الدم

والجنس . وخفت صوت القائلين (بالدولية) و (اللاعسكرية)، وارتفع صوت الناعقين بشريعة القوة المادية وحق الأقوى فى سحق الآخرين وسيادة العالمين .

. . .

عجباً ! أترى الأنسانية لا تتقدم فى حقيقة الأمر ولا تتأخر . أتراها حقاً تدور فى تلك الحلقة المفرغة : غريزة وقلب وعقل ثم غريزة وقلب وعقل ... الخ وهكذا فى حركة دائمة كحركة الكواكب فى مجموعاتها الشمسية ؟ فى ذلك الوقت تيقظت فى نفسى فكرة قصتى « شهر زاد » . «شهر زاد» هى مأساة الشك فى إطراد التقدم الانسانى فى خط مستقيم .

. . .

إذا كنت أشك فى التقدم الانسانى ، وأرى أن دورة الأنسانية تسير بمقتضى قانون شبه فلكى لا ينحرف قيد شعرة كقانون الشمس والقمر والظلام ، فأى جدوى فى نشر هذه الصفحات وفى إطلاق الصيحات ؟

. . .

الحقيقة أن عقلى يشك ولكن قلبى يؤمن . إن قوة العقل الشك ، وقوة القلب الأيمان . والأنسان هو الفريسة التى تتصارع فوق جسدها هاتان القوتان . إن روح « المأساة » هى الصراع . ولقد أدرك شعراء المآسى الأغريقية أن أروع صراع هو ذلك الصراع القائم دائماً بين الانسان وتلك القوى العليا الخارجية التى يسمونها « القدر » و « الآلهة ».

أما أنا فقد رأيت مأساة الانسان والانسانية هي في ذلك الصراع الدائم بين تلك القوى الداخلية : العقل والقلب . لذلك كتبت قصتي « أهل الكهف » . « أهل الكهف » هي مأساة الصراع بين العقل الذي يشك والقلب الذي يؤمن .

. . .

نعم ، إن عقلي يشك ولكن قلبي يؤمن . ما من رجل أحب الأنسانية استطاع لحظة أن يشك في إمكان تقدمها وسموها . إني اعتقد أنها تتقدم ، ولكن مثل تقدم المجموعة الشمسية في الفضاء . كل كوكب فيها يدور حول نفسه وحول الشمس ، ولكن المجموعة كلها تسير مع ذلك في فضاء اللانهاية .

. . .

نعم . لقد لبثنا حقيقة فى حياة الصيد ٤٩٠٠٠٠ سنة ، ولكن أى خطوات هرقلية خطوناها بعد ذلك فى القرون القليلة الأخيرة ! إن سلطان الظلام يهددنا من آن لآن ولكن القيم التى كسبناها قد كسبناها . إن الحرية والجمال الروحى والفنى والفكر الطليق وحقوق الانسان ، كل أولئك أشياء لايمكن للأنسانية أن تنزل عنها أو تنساها . قد تعصف بها حيناً بعد حين عواصف القوى الأرضية ولكنها لن تستأصل جذورها التى تنمو وتمتد فى أعماق النفس البشرية .

. . .

علينا إذن نحن جنود القوى الروحية والفكرية أن ننشر الصفحات وأن نطلق الصيحات، كلما شنت علينا الغارات جيوش القوى الأرضية والحيوانية .

٣

دفاع القوى الروحية والفكرية

منذ أدركت أن الحرب حرب القوى الأرضية وأن السلطان سلطان الظلام، وأن الأمر للزعماء المروضين، رأيت الدفاع منوطاً بالقوى الروحية والفكرية، وسلطان النور، والقادة الروحيين.

. . .

على أن الذى هالنى حقاً هو ذلك الأثر الذى أحدثه طغيان القوى الأرضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم. عند ذاك بادرت بنشر تلك الكلمة

الى عنوانها (فيران السفينة)[١] موجهة الى أولئك الذين كانوا البارحة يتشدقون بذكر النور والحرية والفكر والمدنية الخ. فلما هزت يد القوة البربرية هذه الهياكل، هبوا مذعورين إلى الجانب الآخر يمجدون القوة الغاشمة ويعبدون الطغيان. هؤلاء الذين خدعونا وخدعوا أنفسهم يوم لبسوا مسوح المؤمنين بالقيم العليا للأنسانية، فأذا هم فيران فى سفينة الحضارة والحرية يمرحون فى أرجائها وهى بخير. فلما شموا ريح الخطر انسلوا يبغون الفرار منها ولو على ظهر حطامها. ثم هاهم أولاء يقفزون إلى سفينة القرصان، يتخذونهم آلهة ومثلا عليا، ويضعون تحت أقدامهم عين الأزهار التى جعلوها من قبل على هام تماثيل الحرية المجيدة. الى أولئك

(١) جريدة الاهرام عام ١٩٤٠

الخارجين على قوى الروح والفكر أؤكد عقيدتى الدائمة فى هذه الكلمات : (انى أزدرى وسأزدرى دائماً القوة الوحشية فى ذاتها . وانى أدعو وسأدعو دائماً إلى القوة الفكرية والمعنوية التى تنتج القوة المادية الخصبة الخيرة الكفيلة بتنمية مواهب الانسان وفضائله وضمان حرياته وحقوقه وتمكين النوع البشرى من الاستمرار فى الرقى ! فى سبيل هذا وحده أعيش وأعمل كما يعيش جنود الفكر والروح ويعملون . وإنى أعلن هذه العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوماً من أجلها . وأن أغرق معها إذا غرقت . فلا خير فى صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت بموتها .

لقد تمنيت فى نفسى لو أن فى المقدور توحيد صفوف رجال الفكر والروح فى كل شعب وأمة . فأمام كتل الظلام يجب أن تقف كتل النور . من أجل ذلك نشرت نداء إلى رجال الفكر[1] أقول فيه : لاريب أن رجال الفكر فى مصر قد تأملوا ملياً تلك الخطبة التى ألقاها (سمنر ويلز) عند انتهاء المؤتمر العلمى للأمم الأمريكية مشيراً فيها إلى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة وما تبعه من حركة إحياء العلوم ، إلى أن قال : ليس فى مقدورنا أن نتكهن بشىء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ، فى بلاد أصبح البحث

(١) جريدة الاهرام ٢٠ مايو ١٩٤٠

الحر فيها مستحيلا ... الخ ، ثم تمنى أن يزول شبح هذا الخطر الداهم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة إلى واجب الذود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها .

هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق ، لابد أن يكون لها صدى عميق فى نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباعث لحضارة البحر الأبيض .

ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهى تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنابذين ، فان نذير الدمار المسلط على شئون الفكر والروح كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الأولى . فألى إخوانى المفكرين والأدباء أوجه هذا النداء . وإن العبرة التى

تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد وارتفاع أصواتهم فى صيحة واحدة قد يكون لها أعظم الأثر فى توحيد صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد .

. . .

فى اليوم التالى نشرت إحدى الصحف اليومية(١) مقالا طويلا جاء فيه : « ونحسب دعوة الكاتب جماعة المفكرين إلى الدفاع عن الحرية الفكرية ضد الدكتاتورية ... قد جاءت ممن كان آخر الذين ينتظر منهم الحماسة للديموقراطية والحريات المقررة فى الدساتير لأنه سبق أن طعن فيها وتحامل عليها ... الخ »

(١) جريدة المصرى ٢١ مايو ١٩٤٠

. . .

وهذا صحيح . على أنى بعثت الى هذه الجريدة أقول[١] « إنى يوم انتقدت الديموقراطية ، لم أفعل أكثر من أولئك الكتاب الديموقراطيين الذين هبوا فى فرنسا وانجلترا يحملون على بعض مثالب هذا النظام مشبعين بروح الرغبة فى علاج الداء وتقوية الضعف . على أن كل طعن وكل نقد لأى مقصد من المقاصد ينبغى أن يزول فى الحال . وقد زال فعلا عندما بدا للجميع أن الديموقراطية باعتبارها مبدأ إنسانياً مهددة فى صميمها بالزوال ، وأن شبح الطغيان القائم بدا فى الأفق ينذر الناس بأن أفواههم ستكم وأن حق تفكيرهم سيلغى بعد اليوم ، وأنهم محكوم

(١) جريدة المصرى ٢٢ مايو سنة ١٩٤٠

عليهم أن يعيشوا طول الحياة آلات وأدوات تتحرك بمشيئة طاغية . هنا تتلاشى الخلافات والانتقادات . ولا يبقى لكل رجل حر أو صاحب قلم وفكر إلا أن ينهض ذائداً عن الديموقراطية ناسياً إلى حين مآخذها ، فهى النظام الوحيد الذى يستطيع فى ظله أن يعيش فرد ذو كرامة . وإذا ذهبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت .

. . .

هل أنا كاتب ديموقراطى ؟ الحقيقة أنى لست ديموقراطياً بالمعنى السياسى لهذه الكلمة . إنى لا أستطيع أن أنتمى إلى الديموقراطية باعتبارها نظاماً سياسياً أو حزبياً . لأن الحرية الفكرية والروحية التى هى كل مسوح المفكر الحر الحقيقى تمنع من

الانخراط فى سلك حزب أو نظام قد يضطر إلى الدفاع عنه بالحق وبالباطل . إنى لا أستطيع أن أدافع قط عما أعتقد أنه الباطل . ولا أستطيع أن أخدم شيئاً قط غير ما أعتقد أنه الحق . وهو لن يكون إلا فى المبادىء . المبادىء العليا الخالدة البعيدة عن الأشخاص الزائلين . إن الذى أومن به إذن وأدافع عنه دائماً هو الديموقراطية باعتبارها مبدأ إنسانياً لا نظاماً سياسياً . الديموقراطية الموجودة فى قلب كل إنسان يقدر معنى « حقوق الانسان » ومعنى « الحرية » و « الكرامة الآدمية ».

. . .

الكاتب الحر الحق هو الذى يبقى بعيداً عن الحركات الحزبية والسياسية كى يستطيع فى كل

وقت أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الانسانية . ولا يؤازر المذاهب والأشخاص إلا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل .

. . .

لذلك لم أستطع أن أغمض عينى على بعض النظم السياسية المنتمية إلى الديموقراطية يوم تطرق إليها الفساد وعبث بها الساسة المحترفون .

. .

فى قصتى « براكسا أو مشكلة الحكم » سخرية ببعض مظاهر الحكم الديموقراطى ، وسخرية ببعض مظاهر الحكم الدكتاتورى . وليس فيها حل لمشكلة الحكم . لماذا ؟ لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر .

. . .

إن الكاتب الذى ينشىء مذهباً سياسياً يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه، مثله مثل الكاتب الذى ينضم إلى مذهب سياسى قائم. كلاهما قد فقد النظر الحر إلى بقية المذاهب والأشياء، وقص أجنحته التى يحلق بها فوق الكائنات ليقع محصوراً فى حظيرة فصيلة من الفصائل أو نوع من الأنواع.

. . .

الكاتب الحر فى نظرى هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين. إنه هو الذى يحصى الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل. وهو الذى يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم. وهو الذى ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا.

. . .

الكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الانسانية .

. . .

للكاتب الحر مهمة إيجابية أيضاً . فهو قد يستطيع أن ينشىء للانسانية نظما وعوالم مثالية ، وأن يرسل فى الأجيال أفكاراً ومبادىء تصلح أساسا لمذاهب عملية فى السياسة والاجتماع . ولكنه لن يكون مسئولا عن كيفية استخدام أفكاره ولا عن الأشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ .

. . .

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود إذ بمجرد التقيد تتعطل فى الحال آلة التفكير الحر .

. . .

التفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ إلا من مبدأ حرية التفكير .

. . .

لذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروضين هو نضال حياة أو موت .

٣

فى طريق التحرر من سلطان الظلام

أول خطوة فى طريق التحرر من سلطان الظلام هى القضاء النهائى على رغبة القوى فى الوثوب على الضعيف .

. .

قانون الغابة الذى لم يزل يسيطر على المجتمع الدولى ، يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التى تنظم كل مجتمع متحضر لأمة متحضرة .

. .

ترتفع اليوم أصوات جميلة كأنها أهازيج الطير قبيل الفجر الجميل . لقد سرنى قول روزفلت فى إحدى خطبه : لم يكن فى العالم ولن يكون فيه عنصر يصلح أن يسود غيره من العناصر الأخرى . وليس فى العالم مكان لأمة تزعم لنفسها حق السيطرة على بقية الأمم والأجناس لا لشىء إلا لضخامة حجمها وقوة جيوشها . إن لكل شعب مهما يكن صغيراً حقاً موروثاً فى التمتع باستقلاله كما يشتهى ويريد .

. .

سرتنى أيضا آراء ويلز فى حقوق الانسان كما عددها وتمناها ، ونظراته فى مستقبل الأنسانية ، وتصوراته فيما ينبغى أن يكون عليه عالم الغد .

. .

على أن الذى سرنى أكثر من كل ذلك هو أن قادة الفكر والروح قد أدركوا أن عدوهم الحقيق ليس فقط هؤلاء المهرجين من الزعماء المروضين . أمر هؤلاء هين ميسور . والقضاء عليهم مرهون بوقت يسير . إنما العدو الأكبر هو « دين العصر » الرابض وراء الجميع : « الاقتصاد الحديث » .

. . .

لا أمل فى إصلاح العالم إلا إذا عولج شقاء الملايين فى كل أمة من الأمم . من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضين أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة « الوطنية » وحدها فى التأثير على الجموع ، فقرنوها بكلمة « الاشتراكية » .

. . .

إن الصائغ الذى يريد أن «يلحم» ذهبا بنحاس ليس أقل تزييفا من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا «الاشتراكية» «بالوطنية».

. . .

إن جوهر «الاشتراكية» السليم لا يمكن أن يقترن إلا بفكرة «الدولية».

. . .

إن العالم يتجه الآن من غير شك إلى الاشتراكية. بل انه قد خطا إليها بالفعل خطوة واسعة منذ قام فى بريطانيا ذلك الانقلاب الحديث فى نظام العمل. هذا الانقلاب الذى بمقتضاه يصبح العمال «خدام الدولة» فلا يستطيع صاحب العمل فصلهم بمحض إرادته ولا يستطيعون هم أن يتركوا

أعمالهم بدون إذن السلطات ، كما أنه يستطاع نقلهم من مصنع إلى آخر . وتحدد الحكومة الأجور وساعات العمل، وتشرف على أرباح رأس المال ...الخ . بل لقد قيدت الحكومة أرباح رأس المال إلى حد المصادرة إذا تعدى الربح رقما مقدراً .

. . .

إنى لست أرى رأى القائلين أن تلك أنظمة استثنائية تزول بزوال الحرب . بل إنى أرى رأى القائلين أن كل ذلك نواة لعالم جديد يتكون منذ الآن ليولد صحيح البنيان بعد الحرب .

. . .

يقول مستر اتلى زعيم العمال وأحد وزراء بريطانيا اليوم : « انطوى العالم الذى كان قبل الحرب

وسوف تكون الانقلابات التى تجلبها هذه الحرب مثل الانقلابات التى جلبتها الحرب الماضية فى عظم شأنها وسعة نطاقها . أما الخطط التى يراد بها إنشاء عالم جديد أقرب إلى الأنصاف من العالم الذى انقضى فلا يصح تركها إلى زمان السلم بل يجب الشروع فى رسمها منذ الآن . إنى لأرجو بعد الحرب أن يكون تقديم الطعام الملائم لجميع أفراد الأمة جزءاً ثابتاً من برنامج السياسة « القومية » . وإنى لأرجو أن لا يسمح بعد اليوم ببقاء صنف « الأغنياء المتعطلين » ولا أن ينكر حق العمل على الذين يريدون العمل ويقدرون عليه . وأن يقضى على البطالة القضاء الأخير » .

لاريب إذن فى أن الأشتراكية هى جوهر لا بد أن يدخل فى تركيب كل نظام سياسى حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع « الوطنية الاشتراكية » فما أيسر على الديموقراطيات إنشاء « الديموقراطية الاشتراكية » .

. . .

ما أسميه هنا « الديموقراطية الاشتراكية » إن هو إلا هذه النظم الاشتراكية التى قامت اليوم داخل إطار الديموقراطية . كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل إطار الوطنية الدكتاتورية .

. . .

نحن اليوم إذن أمام حرب « الوطنية الاشتراكية » و « الديموقراطية الأشتراكية » .

. . .

« الديموقراطية الاشتراكية » هى من غير شك صياغة مقبولة لجوهرين متلائمين . لكن « الديموقراطية شىء والدولية شىء آخر » .

. . .

إذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد إبادة الدكتاتوريات هى تعميم « الديموقراطيات الاشتراكية » لكان هذا جميلا . لكنه ليس كل ما يصبو إليه التقدم الانسانى . ذلك أن (الديموقراطية الاشتراكية) هى أيضاً ليست أكثر من « نظام داخلى » لكل دولة من الدول ، وأن كل دولة « ديموقراطية اشتراكية » تستطيع أن تنشىء لنفسها مطامع استعمارية وسياسة قومية تقوم على السيادة الخارجية

وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدموية بين الدول « الديموقراطية الاشتراكية » بعضها ضد البعض .

. . .

كانت فكرتى منذ أعوام أن « الاشتراكية » ينبغى أن تأتى من الخارج الى الداخل . أى أن تسود بين الدول قبل أن تقر بين الأفراد .

. . .

الاشتراكية بين الدول فى الانتاج والتوزيع والقانون والنظام . إذا تم ذلك فقد تم كل شىء تبعاً لذلك .

. . .

أهذا حلم بعيد التحقيق ، لايراه غير خيال

ويلز وبرناردشو ، كنت أظن ذلك قبل أن أقرأ خطبة رجل رسمى مسئول من أقطاب الحكومة البريطانية الحاضرة هو « هربرت موريسون » ، فقد تحدث عن عالم الغد قائلا : (إن الهدف الذى نرمى إليه هو نظام تعاونى دولى يدعمه بوليس وطيران دوليان تعيش الدول فى رحابه ، مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق استقلالها ، لتتضافر جميعها فى إخلاص على خلق حياة أرق وأصلح . ينبغى أن نعيش فى ذلك النظام الذى يمنح فيه كل إنسان لا فقط حرية القول والفعل بل حرية العمل لأبداع كل ما هو خصب منتج . ينبغى أن نسير نحو ذلك المجتمع الذى برىء من ذلك الطاعون المزدوج : الغنى المتطرف والفقر المتطرف ، نريد مجتمعاً يقبل فيه عن

طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للصحة والراحة والطمأنينة والأمن والتهذيب لكل إنسان ...)

. . .

وبعد ... أترى الأنسانية قد فهمت أخيراً وتعلمت ؟ هل آن الأوان للأنسانية ، التى عرفت كيف تنفق ملايين الملايين فى التدمير والاستعباد ، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها فى التعمير والاسعاد ؟ هل آن لأعيننا أن ترى الطائرات فى أحدث أنواعها الضخمة كالقلاع ، تنقل بدل أثقال المفرقعات والمهلكات ، أحمال الخيرات والمنتجات ، ليعم خيرها البشر والكائنات، دون أن تعترضها جمارك أو حدود ! أترى أساطيل الهواء اليوم ذات

المظلات البيضاء هى ملائكة السلام غداً ، تهبط كى تمحو الفواصل التى وضعتها يد البربرية على الأرض منذ القدم لتحول بين الأنسان وأخيه الأنسان ؟

إلى كل من يحمل قلباً نابضاً بالأمل فى سمو البشرية ، فياضاً بالحب للأنسان والأنسانية أوجه هذه الصيحات ، وأهدى هذه الصفحات ؟

ت . ا

القاهرة : مارس ١٩٤١

تلميذ الموت

إلى أعداء الانسانية

جلس (الوت) ذات صباح فى قاعة عمله ، إلى مكتب ضخم يقوم على عظام فيل . ووضع أصبعه على جمجمته مفكراً . وعيناه الغائرتان تنظران إلى مجموعة أثرية من المناجل تزين الجدران ، وفمه الواسع ذو الأسنان الصفراء يلوك سيجاراً كبيراً منطفئاً . كأنه فرع جاف يتمايل فى رأس شجرة نخرة فى يوم من أيام الخريف . كل شىء فيه يدل على القلق واضطراب البال . ومد يده أخيراً إلى ملف فوق مكتبه وانتزع منه ورقة . جعل يطالع ما فيها من إحصاءات وأرقام . على مهل وفى شىء من التأمل

العميق ، ثم طرحها فجأة نافد الصبر وصاح :

— هذا إفلاس . إن هذا هو الافلاس !

ثم ضغط على زر الجرس الكهربائى وطلب أحد مندوبيه واسمه (المرض) . فلم يلبث أن ظهر بباب الحجرة بوجهه القبيح ذى التجاعيد والبثور وعينه العوراء . وتقدم فى خوف وخجل بقدمه العرجاء . فبادره الموت قائلا :

— ما هذه الأرقام والاحصاءات التى بين يدى ؟ ؟ إن أعمالنا تتناقص على نحو مخيف . وإن دائرة أشغالنا تضيق عاماً بعد عام . إن إيرادنا السنوى من الأرواح التى اعتدنا قبضها قد هبط إلى مستوى يدعو إلى القلق الشديد !

فتنحنح (المرض) وقال :

— أيها الرئيس . ينبغى أن أعترف لك بالحقيقة يستحيل علىّ الآن أن أقوم بعملى كما كنت أقوم به فى الماضى . إنى كنت على وشك تقديم استقالتى إليك اليوم .

— استقالتك ؟

— من غير شك ، إذا جال فى خاطرك أنى مقصر أو مسئول عما وصل إليه (الأيراد) من نقص . إنى ما تركت بيتاً إلا دخلته ولكنى كنت أجد دائماً فى انتظارى . . .

— ماذا ؟

— أشياء مخيفة يقشعر من هولها بدنى : (حقنة ذات إبرة طويلة) مسددة إلى قلبى و (مصل فى أنبوبة زجاجية) مجهز ليفرغ فى صدرى و (جهاز

أشعة) يعمى بصرى . . كلا . إنى لا أستطيع العمل مطلقاً أمام هذه الأخطار . .

— لكل عمل أخطاره . على كل حال . هذا ليس سبباً . . .

— هذا على الأقل سبب معقول لضعف إنتاجنا . فكظم (الموت) غيظه وقال كالمخاطب لنفسه من بين أسنانه :

— تباً لهذا العلم الحديث . لكنى أعرف كيف أحطم أسلحته . لا بل أعرف كيف أجعل منها أسلحة لى . اذهب أيها المندوب إلى عملك ودعنى أتدبر الأمر .

— سأعمل بقدر استطاعتى لا أكثر ولا أقل .. قالها (المرض) وخرج من الحجرة . وعاد (الموت) إلى

إطراقه . ثم رفع رأسه ومد يده مرة أخرى إلى زر الجرس الكهربائى وضغط عليه . وطلب مندوبه الآخر المسمى « الحرب » . . . فجاء يدوى بصليل دروعه الحديدة وضرب الأرض بحذائه الضخم ورفع يده بالتحية العسكرية . فبادره « الموت » قائلا :

— إسمع : انى فى حاجة اليك . أنت كما تعلم ، المعول عليه دائما فى ازماتى ، وينبغى أن أصارحك فى الحال بأنى واقع فى ازمة شديدة . انظر الى هذا التقرير وما فيه من احصاءات وارقام تدل على عجز وافلاس . . انت وحدك ، كما تذكر ، المنوط دائما بموازنة ميزانيتنا وتعويض الخسائر الناتجة عن سوء الأعمال . ففى شهر واحد تستطيع ان ترفع الأرقام الى ما يعادل ايراد خمسة اعوام .

خلع « الحرب » خوذته النحاسية ومسح عرقه المتصبب وقال :

— ايها الرئيس . انى كنت على وشك تقديم استقالتى . . .

فدفع «الموت» مقعده الى الوراء صائحاً :

— انت ايضاً ؟ ماذا جرى اليوم فى الدنيا ايتها الشياطين ! !

فأشار « المندوب » الى النافذة وقال لرئيسه :

— اذهب وانظر واسمع : نشيد يتصاعد كالدخان من بطن الارض ، من كل قلب ، مرتفعاً الى السماء كأنه غاز خانق يصل الى انوفنا . .

— اى نشيد ؟

— نشيد « السلام » . فى كل مكان يتغنون به .

وفى كل بلد يعقدون له الجلســـات والمجتمعات والمؤتمرات . نعم . كل مكان أدنو منه أجد من يلقى فى وجهى هذا الغاز الخانق . لا... إن عملى الآن لا يسرنى ولا يلذ لى . . .

فأطرق « الموت » طويلا ، وقد حار فى أمره ، لا يدرى ما يفعل . . وأحس الضيق ، فنهض وسار إلى النافذة الواسعة فى صدر حجرته . وأشرف منها على الأرض الجميلة ، ورأى الأشجار وقد أورقت ، والأزهار وقد تفتحت وابتسمت فى ألوان زاهية والثمار قد أينعت ودنت منها القطوف وتدلت العناقيد ، والطير يشدو بين فراخه والحيوان مطمئن إلى صغاره ، والأنسان ناعم مع أولاده ، ونسيم الربيع ينشر أريجه على الربوع ، وأغانى الفرح

تتصاعد من الحقول والمروج والمدن ، والقرويون يرقصون وهم يحصدون . . كل شيء ينم عن استقرار السلام والهناء والجمال . ويدل على أن الحياة تتجدد وأن الخصب يدب فى كل شيء .

فلفظ « الموت » آهة مروعة وابتعد عن النافذة وقد أحس حقاً أنه يكاد يختنق . وسار خطوتين فى حجرته ثم ارتمى فى مقعده منهالكا ، وهو يردد من بين أسنانه :

— هذا هو الأفلاس . هذا هو الخراب . انهار مجدى وذهب سلطانى !

لكن يأسه لم يدم طويلا . فقد هب على قدميه فجأة وصاح :

— لا ، .. يجب أن أكافح . كفاحى وحده خليق

أن يعيد إلىّ قوتى ونفوذى .

ثم التفت إلى مندوبه «الحرب» وقال له :

— تذكر جيداً . هذه ليست أول مرة نقع فى أزمة . لقد سبق لنا أن وقعنا فى أزمات أشد من هذه هولا . تذكر تاريخك وماضيك جيداً أيها الحرب !

— إنى متذكر تاريخى جيداً . لم يكن فى تاريخى غاز خانق يملأ الكون مثل هذا النشيد الملعون . . .

— كان فى تاريخك دائماً فترات سكون . ولم يمنع هذا من اشتعالك وعودتك إلى أعمالك .

— لا تطلب إلىّ أن أشعل نفسى بنفسى . إنى لم أصنع ذلك قط منذ ولدت . إنما أنا «علبة كبريت» ينبغى أن . . .

— ينبغى أن توضع فى يد مجنون !

قالها « الموت » وانفجر ضاحكا فى قهقهة طويلة متصلة اهتزت لها أركان المكان . وظن « المندوب » أن رئيسه يمزح وأن النكتة قد أعجبته فلم يشاركه فى الضحك . لكن الرئيس التفت إليه قائلا :

— ألا تضحك وتسر لقد وجدنا المفتاح . . .

— أى مفتاح ؟

— أقسم أنك لا تعرف تاريخك كل المعرفة . ارجع بذاكرتك إلى الماضى تجد أن من أشعلك دائما كان . . . « رجل مجنون » !

وعاد إلى الضحك . ثم دنا من النافذة مرة أخرى ونظر إلى الأرض الجميلة فى حلتها التى أسبغها عليها الربيع ، وتأمل السلام المخيم على الربوع ، وأنصت

إلى أغانى الناس ورقصهم وهنائهم وصاح :

— ها ها ها . . سوف أصب على كل هـذا دماً أحمر !

وترك النافذة على عجل ، واتجه إلى مشجب فى ركن الحجرة . قد علق عليه عباءته السوداء الواسعة . فجذبها وتدثر بها ، وأشار بتحية سريعة من يده إلى مندوبه ، وقال له وهو يتركه ويهبط إلى الأرض :

— كفاحى ونجاحى متوقفان على العثور على « مجنون » !

. . .

سار الموت فى الأرض على غير هـدى ، وجعل يكظم غيظه كلما مر بناس سـعداء وأشجار مورقة وطيور مغردة . إنه يكره الحيـاة . وهرب سريعاً

من الريف ودخل المدن فهالته المبانى الرائعة الفخمة ودور اللهو التى تعج بالضاحكين المرحين ثم التماثيل الجميلة القائمة فى كل مكان . إنه يكره الجمال . كل شىء حوله يدل على الحضارة المستقرة والبشرية المتقدمة المستمرة . أين هو الرجل الذى يجرؤ على أن يصب فوق هذا كله الدم الأحمر ؟ وتجهم وجه الموت وكاد يعود إلى اليأس ويترك كفاحه ، وإذا نظره يقع على جمع من الناس يصيحون فى الطريق امام بناء ضخم جميل مزين بالتماثيل هو فيما يبدو متحف عظيم . فاتجه نحوهم فأبصر رجلا نقاشاً فى رأس سلم خشبى مسند إلى هذا البناء . فى يده ريشة يغمسها فى وعاء به طلاء احمر ، يلطخ به وجه البناء فى غير ذوق ولا رشاقة ، حتى سال من رؤوس التماثيل وافواهها وانوفها ذلك اللون القانى ...

وهاج به المارة :

— كف أيها النقاش !؟. إنك تفسد رونق المتحف .

وسمع موظفو الدار الصياح فخرجوا يهرعون ورأوا ماحدث فصاحوا :

— قف أيها العامل ! إنزل أيها العامل !

فالتفت اليهم النقاش من أعلى السلم :

— ألا يروقكم هذا اللون ؟ إن متحفكم فى حاجة إلى لون حار صارخ ...

فصاح موظفو المتحف بالناس المجتمعين :

— انزلوا هذا المغرور المجنون !

هنا لفظ «الموت» صيحة فرح دوت داخل هيكله العظمى وقال مخاطباً نفسه :

— عثرت عليه ! عثرت عليه !

ثم تقدم إلى السلم ونادى الرجل :

— أيها النقاش! انزل فعندى لك عمل أعظم من هذا.

. . .

مشى « الموت » إلى حانة من حانات « البيرة » ومعه النقاش يحمل ريشته ووعاء صبغته الحمراء ، وهو يقول « للموت » :

— هذا العمل فى أى بناء .. ؟

فابتسم « الموت » عن أسنانه الصفراء :

— فى بناء هائل ينبغى أن تريق عليه كله هذا اللون الأرجوانى . . .

فقال النقاش :

— أرأيت هؤلاء الذين لا يعجبهم عملى .

— إنهم حمقى . هذه المتاحف بألوانها الهادئة

المطمئنة لما يؤذى النظر . ألا ترى مثلى ذلك ؟ كل هذا الذى يسمونه (الجمال) وكل هذا الذى يسمونه (المدنية) يجب أن يصب عليه لون الثورة .

فقال النقاش فى نبرة تنم عن عدم فهم :

— أى جمال وأى مدنية ؟

فاستطرد « الموت » دون أن يصغى إليه :

— ذلك اللون الذى تثور لمرآه أعصاب الوحوش فى الغابة !

— الغابة ؟ !

— نعم . ما أجمل هذا اللون الذى يعبد فى الغابة ؟

لفظها « الموت » وكأنه يرتل شعراً (لو أن الشعر يرضى أن يدنو من فم الموت) . ثم التفت فجأة الى النقاش قائلا :

— وأنت الرجل الذى يستطيع أن يلطخ كل شىء بذلك اللون !

— اللون الأحمر ، نعم أستطيع أن أصبغ به .

— أعرف هذا .

قالها « الموت » وهو يشير بأصبعه إلى (جارسون) الحانة يطلب إليه كأسين من بيرة (مونيخ) .

وجاء الشراب فرفع « الموت » كأسه قائلا :

— فى نخب نجاحنا !

. . .

عاد الموت إلى مكتبه وهو يفرك يديه سروراً .

فتلقاه مندوبه « الحرب » قائلا :

— ماذا صنعت أيها الرئيس ؟

فأجاب « الموت » باسماً :

— عثرت لك على الرجل الذى ينبغى أن تلقى بين يديه علبة الكبريت !

— لا تنس أنه يجب أن يكون (مجنوناً)

— لم أنس .

— أين هو ؟

— بينى وبينه موعد بعد قليل .

ودخل الليل . ودقت الساعة الثانية عشرة . فأومأ الرئيس بيده إلى (مندوبه) آمراً إياه أن يختفى فى الحجرة المجاورة . وأقبل (النقاش) . فاستقبله (الرئيس) بالترحاب وقدم له كرسياً قرب المكتب . ونظر النقاش حوله يفحص المكان . ثم التفت إلى «الموت» قائلا :

— إنى فى خدمتك .

— بل أنا الذى فى خدمتك .

— عفواً ... إنى ...

— لا تتواضع . إنك لاتعرف قدر نفسك . إنك خلقت لتغير وجه العالم . إن القدر قد اختارك لتصبغ الوجود كله باللون الذى يروقك . إنك مهيأ لتسيطر على قطعان البشر . إن آلهة الغاب الوثنيين قد ندبوك لتعيد حكمهم وحكم شريعة الغابة على هذه الأرض !

— أنا ؟

— نعم أنت

— وكيف أستطيع ذلك ؟

— الخطة بسيطة . فلنسطرها على الورق أولا حتى تتحدد معالمها ويسهل السير بمقتضاها . خذ هذا القلم واكتب .

وقدم « الموت » قلماً وورقاً إلى النقاش وقال له :

— سأملى عليك كتاباً هو دستور العمل .

أكتب : « كفاحى » !

فرفع النقاش رأسه نحو « الموت » مستفهماً :

— كفاحك ؟ ؟

— بل كفاحك أنت .

— كفاحى أنا ؟

— « كفاحنا » نحن الاثنان إذا شئت .

قالها « الموت » فى ابتسامة وهو ينظر إلى باب الحجرة المجاورة وقد أطل منه مندوبه « الحرب » برأسه وغمز بعينه لمولاه غمزة ذات معنى . وجعل « الموت » يملى على النقاش الكتاب . والنقاش يكتب وهو صامت وكأنه فى غيبوبة ، وقد تصبب من

وجهه العرق ، وجعل يقول كالحالم :

— أنا سأقوم بكل هذا ؟ أنا سأصنع كل هذا ؟

— أنت إنسان عظيم .

— أنا إنسان عظيم ؟

— وصاحب رسالة هيأك لها القدر والآلهة الأقدمون . لا ينبغى أن تشك فى ذلك لحظة .

قال له « الموت » ذلك فى نبرات قوية ، تستر ابتسامة خفية . وعلم المندوب الآخر (المرض) بقرب انفراج الأزمة فجاء هو أيضاً يطل برأسه من خلف الباب ، وكتفه تزاحم كتف (الحرب) ومال على أذن زميله هامسا :

— أهذا هو المجنون الذى كان يبحث عنه الرئيس ؟

— نعم قد عثرنا عليه أخيراً .

— ينبغى أن يكافأ هذا الرجل . يجب أن يمنح هدية ثمينة . ترى ماذا سيعطيه « الرئيس » ؟

فقال « الحرب » باسما :

— ما أعطى أمثاله من قبل .

— ماذا ؟

— علبة كبريت .

— إنه حتما يحدث بها حريقا .

— هذا هو المطلوب .

— لكنه هو أيضا سيحترق .

— ولهذا هو مجنون !

91

الانتصار الخالد

إلى أهل النرويج محبي الجمال والحرية .
وإلى الشعب اليوناني منبع الفكر الحر
والديموقراطية . وإلى كل شعب حي
يجاهد في سبيل استرداد « مطرقته
الفضية » رمز القوة المعنوية والحيوية
الروحية .

جاء فى أساطير النرويج القديمة ، أن قصف الرعد يحدث من عجلات مركبة إله يدعى « ثر » ، يركض بها فوق السحب ، يجرها وعلان عظيمان . ويروى أن لهذا الاله قصراً أحجاره من الزمرد والياقوت ، به أكثر من خمسمائة حجرة ، مشيداً فى « أسجارد » مدينة الآلهة والأبطال . على أن قوة « ثر » ومعجزته هى فى « مطرقة » هائلة من الفضة الخالصة يملكها ، لها مزية عجيبة . فهى ترتد دائماً من تلقاء نفسها إلى قبضته ، بعد أن تصيب مايقذفه بها . لهذا حرص « ثر » كل الحرص على هذه المطرقة الثمينة

غير أن سوء الطالع شاء يوماً أن يفقد هـذا الآله مطرقته ، وأن تقع فى يد عدوه « ثريم » العملاق . . الذى سـلبها واستولى عليها مستعيناً بسلاح الخيانة والغـدر ، طامعاً فى حبسها بأرض العمالقـة . فأوفد « ثر » رسولا من قبله إلى العمـــلاق يفاوضه فى الشروط التى يقبلها لرد المطرقة الفضية .

. . .

لبث « ثر » أياماً فى قصره ينتظر عودة سفيره ، وقد كاد يمزق أوصاله القلق . إلى أن دخل عليه ذات نهار بعض أتباعه يصيحون :

— السفير ! السفير !

— عاد ؟

— دخل من باب القصر الـكبير .

— أحضروه !

ودخل السفير يلهث ، فابتدره « ثر » :

— قص علىّ ما صنعت .

— ذهبت إلى أرض العمـلاق . . . فرأيت . . .

ووقف عن الكلام يمسح عرقه المتصبب . فصاح فيـه :

— تكلم . . . ماذا رأيت ؟

فأجاب السفير :

— لكأن اللعنة حلت حقاً بتلك الأرض . كل شىء هنـاك يدل على أن العمـلاق هو حقـاً عدو (أودين) إله الشـعر والخير . فكل أهل تلك الأرض يعيشـون فى فزع دائم . . . يهمسـون ولا يتكلمون كأن يداً جهنميـة هائلة تخنق كل شىء ،

وكأن قدماً ضخمة عاتية تطأ كل شيء . . .

— والنوع البشرى كيف هو هناك ؟

— مثله مثل الأغنام الحبيسة فى الحظيرة ، قد وكل بأمرها الكلاب !

— وهل رأيت العملاق ؟

— رأيته وجهاً لوجه ! وقلت له : إن الخيانة والغدر لا يليقان بالعدو الشريف . وإن « ثر » يقبل دائماً نزاله على قواعد الصدق والأمانة والشجاعة الحقيقية . أما أن يحتال على تجريده من سلاحه قبل الهجوم ، بهذه الوسيلة المنكرة ، فهو ما لا تقره الأخلاق الرفيعة .

— وبماذا أجاب ؟

— قهقه ضاحكا . وقال إنه لا شأن له بالأخلاق

والشرف ، فحسبه أن ينتزع قوة خصمه ، ليصبح فى مقدوره أن يجتاح أرضه ، وأن يذل عنقه ، إذا لم يذعن لمطالبه .

— وما هى مطالبه ؟

— أن تسلم له فى الحال إلهة الجمال والحب « فريبا » الشقراء .

فما تمالك « ثر » أن صاح :

— « فريبا » ؟

— نعم ! ليجعل منها جارية له .

— هذا مستحيل .

— أفهمته ذلك ! فقال : إن لم تحضروا إلىّ « فريبا » بأيديكم فانتظروا غارتى لآخذها بنفسى .

— « فريبا » الجميلة ! هذا مستحيل !

صاح بهذا القول الآله « ثر » . ونهض يمشى فى المكان ثائراً فاهتزت تحت أقدامه السحب . فقال السفير :

ـ فلنسألها . فلعلها ترضى أن تبذل نفسها من أجلك .

فقال « ثر » :

ـ ياللعار ! أو أقبل أنا هذا ؟ ماذا يبقى لنا إذا ضحينا بتلك الآلهة التى تنثر فى أرضنا الحب والرحمة والحرية والجمال . وما قيمة الحياة بغير هذه الأشياء ؟

فأطرق السفير قائلا :

ـ حقا . لا قيمة للحياة بغير هذه الأشياء .

ـ هى وحدها التى جعلت فى أرضنا البشر أبطالا ، والأبطال آلهة !

ـ نعم ! وهى وحدها التى تميز مملكتنا النبيلة عن مملكة ذلك الجبار الهمجى ! لكن ...

ـ لكن ماذا ؟

ـ ينبغى أن نذكر دائما أننا إذا لم نسلم لهذا العملاق بمطالبه فأنه يأتى ويطأ أرضنا الحرة الجميلة بأقدامه الوحشية !

فصاح « ثر » بصوت دوى فى المكان :

ـ فلندافع عن أرضنا . ولندافع عن إلهة الحب والجمال بكل مالدينا من قوة !

فقال السفير :

ـ لا تنس أنك قد جردت من القوة .

فأطرق « ثر » مليا . ثم رفع رأسه وقال :

ـ أين (فريبا) أريد أن أرى (فريبا) الجميلة !

فقال أحد الحراس الأتباع :

— إن (فريبا) إلهة الحب والجمال قد خرجت منذ الفجر تجوب الغابات والأدغال ! وتنثر بسماتها على البشر ، وتودع أسرارها قلوب الآلهة والأبطال !

ولكن حارسا آخر تطلع من النافذة ثم صاح :

— ها هى ذى إلهة الحب والجمال قد عادت من نزهتها فى مركبتها المرصعة باللآلىء ، تجرها قطتان ناصعتان ، فى لون النرجس والياسمين !

ودخلت (فريبا) فانحنى لها الجميع إجلالا . واستقبلها « ثر » قائلا :

— جئت فى الحين المناسب .

فنظرت إليه مليا ثم قالت :

— أرى فى وجهك شيئا ذا خطر .

— نعم يا فريبا . لقد عاد السفير .

— عاد السفير ؟ وما الذى جاء به ؟

— فليخبرك هو بما جاء به . تقدم أيها السفير .

فجمد السفير فى مكانه. وعقد الحرج لسانه . فغمغم:

— أرجو من « ثر » أن يتولى ذلك عنى . . .

فقال الآله :

— خجلت من عرض تلك المطالب ! حقاً إنها لمذلة تشق على نفس كل حر !

فقالت (فريبا) فى قلق :

— أى مطالب ؟

فأجاب « ثر » :

— مطالب الهمجى الطاغية . لقد وضع شروطاً قاسية ... قاسية ...

— ما هى ؟ أخبرونى !

فصمت « ثر » لحظة ونظر إلى عينيها الجميلتين طويلا . ثم قال :

— يطلبك أنت . ويريد أن يجعل منك جارية له !

فوجمت إلهة الحب والجمال . وشحب لونها . ولبثت جامدة كالتمثال . وتحركت أخيراً . ولفظت صيحة ألم وغضب :

— أنا ؟ جارية لعدو (أودين) إله الشعر والخير ! أنا أوضع تحت أقدام عدو النوع البشرى ! أنا أذهب إلى أرض الغدر والخيانة والوحشية !

فهدأ (ثر) من روعها وقال :

ـ ذلك ما رأيته أنا أيضاً مستحيلا .

ـ نعم . هـذا مستحيل . ولن أرضى هذا العار

أبداً ، ولن ترضاه الآلهة جميعاً ، ولن ترضاه البشرية النبيلة . ولو كان فيه ردّ مطرقتك !

وغادرت المكان . وذهبت مسرعة تاركة الجميع فى إطراق وتفكير . ولم يدر (ثر) ما يصنع .

وتملكه شىء من القنوط . ولكن من حوله تصايحوا قائلين :

ـ فلنحارب ! فلنحارب ! ولننذد عن (فريبا) مهما يكن من أمر . إنه لعار أبدى أن نترك (فريبا) لهذا العملاق !

فرفع (ثر) رأسه وقال :

ـ نعم . فلنحارب لكن . . . أين السلاح ؟

فقال أحد الذين حوله :

ـ فلنلجأ الى سلاح الدهاء !

وقال آخر :

- لقد لجأ ذلك الغادر إلى الخديعة ! فلنقاتل الخديعة بالخديعة !

وصاح صوت من بين الجمع .

- لم لا نلجأ الى ذلك الداهية البارع (لوكى) ؟ فهو بذكائه قدير على حل المعضلات .

فأشرق الآله (ثر) بالأمل وصاح :

- أصبت . لقد كنت نسيت هذا الحاذق الماهر أحضروه !

فذهبوا إلى (لوكى) وأتوا به . وأخبره (ثر) بما حدث ، وبما كان من أمر مطالب العملاق . فتفكر (لوكى) ساعة ، وهرش لحيته الطويلة ، ثم قال :

- عندى وسيلة ناجعة تحل لكم المعضلة .

فقال الاله (ثر) وجميع من حوله فى صوت واحد:

ـ ما هى ؟

فقال (لوكى) فى صوت رزين متئد:

ـ أن تقبلوا مطالبه ! وأن تسلموا له (فريا).

فصاح (ثر) حانقاً:

ـ أهذه هى الوسيلة التى حلت المعضلة !

فقال (لوكى) فى هدوء:

ـ نعم، والآن دعونى أشرح لكم كيف ترسلونها...

فقاطعه الاله:

ـ لا نريد أن نسمع منك شرحاً أكثر من ذلك!

أيها المخرف الأخرق !

ـ بل اسمعوا: إننا سنعلن قبولنا المطالب، وسنرسل (فريا)، ولكن (فريا) التى ستذهب

هى شخص آخر قد تنكر فى زيها وهيئتها .

فهدأ ثائر الأله . ونظر الى (لوكى) راضياً وقال :

ـ ومن هذا الآخر الذى يتنكر فى زى (فريبا)؟

فأشار (لوكى) باصبعه إلى (ثر) قائلا :

ـ انت نفسك .

ـ انا؟

— نعم انت . وسأذهب انا معك .

. . .

وضعت هذه الخطة فى الحال موضع التنفيذ. واعلن السفير ان (ثر) قد رضى بشروط العملاق . وان (فريبا) سترسل الى ارض العمالقة .

وتنكر (ثر) فى زى إلهة الحب والجمال ومضى فى صحبة (لوكى) حتى بلغا مملكة (ثريم) العملاق . فاستقبلهما

بالترحاب . وأعد لهما وليمة عظيمة ! حوت فاخر الطعام وجيد الشراب . فجعل (ثر) يأكل أكلته الخليقة ببطل . فاسترعى ذلك التفات العملاق . فمال على (لوكى) وهمس فى أذنه دهشاً متعجباً :

— أنظر ! إن إلهة الحب والجمال قد أكلت ثوراً بأكمله !

فقال « لوكى » :

— إنهما لم تطعم شيئاً طول أيام الرحلة .

فسكت العملاق . ثم عاد فألقى نظرة أخرى على « ثر » وهمس فى أذن « لوكى » :

— أنظر ! أنظر ! إن إلهة الحب والجمال قد أكلت حوتاً من السمك !

فقال « لوكى » :

— إن طعامك شهى لذ لها .

فصمت العملاق . ثم أبصر « ثر » يشرب ، فعطف على « لوكى » :

— أنظر ! أنظر ! أنظر ! إنها قد شربت ثلاثة أدنان من الخمر !

فقال « لوكى » :

— إن سرورها برؤيتك قد حبب اليها الشراب .

فغمغم العملاق وقال كأنه يخاطب نفسه :

— ثور وحوت وثلاثة أدنان خمر ! إن إلهة الغرام والجمال تعشق الأكل والشرب فيما أرى !

فسمعه « لوكى » وقال له :

— إن عشق الأكل والشرب نوع من العشق على كل حال .

وجعل العملاق يتأمل « ثر » عن كثب ويقول :

— وددت لو تخلع نقابها لأمتع عينى بجمالها !

فبادره « لوكى » قائلا :

— إن تقاليد الحب والغرام تقضى بأن يقدم المحب هدية لحبيبه عند كشف النقاب .

فقال العملاق من فوره :

— إنى أقدم إليها ما تشاء .

فقال « لوكى » فى لباقة :

— فلتكن هديتها إذن (المطرقة) الفضية التى من أجلها طلبتها .

— فكرة صائبة .

وأمر العملاق ، فحملت « المطرقة » وأحضرت . فأمسك بها ووضعها عند أقدام « ثر » المتنكر . ثم

نظر إلى عينيه خلف النقاب ، فتراجع وهمس فى أذن « لوكى » قلقاً :

— ما بالى أرى عينى إلهة الحب والجمال تشعان ببريق حاد مخيف وتضيئان بشىء كأنه جمر ولهب ...

فقال « لوكى » فى ابتسامة غريبة :

— لأنها شديدة الشوق إلى . . .

ولم يتم عبارته . فقد كانت قبضة تلك الجميلة الوهمية قد امتدت إلى المطرقة الفضية وقذفتها على الجبار . فتحطمت أعضاؤه تحطيما ، وتناثرت أجزاؤه فى الجو كأنها غبار . . .

وخلع « ثر » رداء (فريبا) الجميلة . ورجع بمطرقته يتبعه (لوكى) الحاذق الأمين ، إلى أرض الجمال

والحب والحرية ، وقد تم لها وللبشرية : الطمأنينة الدائمة والنصر الأبدى . . . ذلك أن الحكمة العليا للوجود لا يمكن أن تمنح الانتصار الخالد لغير الجمال والحب والحرية . . .

شهرزاد

مع

شهريار العصر

شهر زاد ! إذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم أنك لفظت باسم عظيم . فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهريار سافك الدماء رجلا مهذباً محباً للخير مترفعاً عن العدوان ، لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسداً أصم ، أو الريح المخصبة واحة مقفرة . واهتدى شهريار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها فانزوت فى بطون الأساطير .

ولكن فى هذا العصر عاد شهريار جديد إلى

الظهور وهو يقطن قصراً لا فى بغداد ، بل فى برختشجادن . وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهريار الأول . بل إن (حمام الدم) الذى لديه أرهب وأروع !

هبطت علىّ أخيراً شهر زاد لتستشيرنى بصفتى « مؤلفها » فى أن تذهب إلى هذا الشهريار المعاصر ، كما ذهبت من قبل إلى ملك الزمان الغابر ، لعلها تظفر بهدايته ، كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنتشله من الطغيان وتربحه لخير بنى الأنسان . فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت إشفاقاً عليها وقلت :

— أيتها العزيزة شهر زاد ! جعلت فداك . لقد خطر ببالى كل ما خطر لك . ولقد رأيت من واجب

الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنق لمديته ، ولسوف أدعى إلى حمام الدم وأنا لا أعرف السباحة فيكون هذا حمامى الأول والأخير . أما أنت ياذات الجمال . يامن اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض المرمرى القائم فى قصرك العجيب ! . .

فقاطعتنى شهر زاد قائلة :

— أتخشى علىّ وأنا الخالدة ! ؟ خف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك !

أكبر ظنى أن إشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات إنما هو على كتابك عنى الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد إذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى وبين هذا الطاغية العداء . يالهؤلاء الأدباء والكتاب !

إنهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم !

وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت فى الفضاء ومضت إلى قصر (برختشجادن)

. . .

كان « شهريار العصر » فى ذلك المساء منفرداً فى قاعة كبيرة من قاعات القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه إلى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع ، وإذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف ثوب وهفيف غلالة حريرية ، ويشم عطراً ملأ جو المكان ، فلستدار ، فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة لم يقع بصره قط

على أجمل منها . . فعقد لسانه وجمد فى مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات .. ثم أفاق قليلا وقال لها كالهامس :

— من أنت . .

فقالت الجميلة :

— انا شهر زاد جئت إليك من الشرق .

وكأنما غمر الرجل فى حلم ، فاذا هو لساعته يحس الأشياء من حوله تخف وترتفع قليلا فى الهواء . وحلت عقدة لسانه . وتحرك من مكانه ، وخف لاستقبال شهرزاد وكأنه يعرفها معرفة الأصدقاء منذ أعوام . واجلسها فى صدر القاعة . وأراد أن يقدم إليها من الطعام والشراب ما يقدم إلى الأضياف الكرام . فأبت وشكرت ، وأشارت إليه بالجلوس والاصغاء قائلة :

— فلأخبرك أولا وسريعاً ، لماذا جئت إليك ، إن مقابلتنا الساعة قد يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب الشهريار جبينه وزالت عنه قليلا غمرة الحلم وقال :

— جئت فى مهمة سياسية ؟ فهمت ، ما أجملك رسولا من الدول الديموقراطية ، إنها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك ! أين هبطت يا سيدتى الطائرة التى جئت بها ؟

— أية طائرة ؟

— عجباً ! كيف جئت إذن ؟

— قلت لك أنا شهرزاد ، شهرزاد الأساطير . شهرزاد التى طالعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت

صغير. وأنا بالطبع لا صلة لى بالديموقراطية أو الفاشستية. لأنى كما تعلم أنتمى إلى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين. إنما أجىء إليك اليوم بصفتى الشخصية. كما جئت من قديم الملك شهريار، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة، أقص عليه من ألوان القصص ما غير نظره إلى الحياة.

فقاطعها الرجل قائلا، وهو ينظر إلى خريطته الحربية:

— ليس لدى وقت للاصغاء إلى القصص.

— هذا من سوء الحظ.

قالتها شهر زاد بنظرة لم تصمد لها عيناه فأطرق قائلا:

— ربما كان هذا من سوء حظى حقا، فأنت امرأة

جديرة أن يجلس إليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة . ولكنى . . مشغول كما ترين . ولا أحسبنى أملك الاصغاء إليك أكثر من ليلة . إن العصور قد تغيرت ، وأن مصائر الشعوب تتقرر أحياناً فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو مقصورة قطار . اطرقى يا سيدتى الموضوع من بابه . . . وأوجزى !

لم تيأس شهر زاد من هذه اللهجة الجافة وقالت مترفقة :

— إطمئن ! . . إنى لا أجلس إلى أحد رغماً عن إرادته ، وإنى لمقدرة وقتك الثمين الذى تنفقه فى . . فى . . فى هدف لا أقرك عليه . وقد أكون مخطئة . وقد تكون أنت المخطىء . . . ثق أنى غير مقيدة برأى . . غير متعصبة لمبدأ . . إنى حرة حتى الآن

مثل هذا الهواء . وقد جئت لأقنعك بما أرى أو لتقنعنى بما ترى . . فليكن بيننا الساعة صراع هادىء بين روح المبادىء . . هل قبلت ؟

— قبلت

قالها شهريار العصر مبتسما وقد طمع فى إقناع شهرزاد ، وأمل فى أن يربحها هو إلى جانبه ، ومن يدرى ؟ لعله يستطيع بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته . ليس بينه إذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه . هنا رفع رأسه مستبشراً . ومر بيده على خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب . وقال :

— سوف أقنعك بمبادئى

— بغير عنف ؟

— بغير عنف .

— إنه ربح لا يستهان به أن تسمح بحرية الرأى والكلام والمناقشة ! ! ولو الى أجل قصير

قالها شهرزاد بابتسامة ذات مغزى . فادرك الرجل لساعته أنه يكاد يقع فى فخ هذه الشرقية الجميلة . فليس هو الذى قد يكسبها ويجذبها الى مبادئه . ولكن الخوف أن تجذبه هى بغير أن يشعر إلى مبادئها . فتجهم وجهه وعادت اليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :

— كلا . لست أسمح هنا على الاطلاق بحرية الرأى وأرجو منك أن تكفى عن ذكر هذه الألفاظ إذا أردت أن نتفاهم .

فابتسمت شهر زاد وقالت متلطفة :

— وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟ ماذا تخشى منى وانا احادثك على انفراد . والأبواب مغلقة ، ولا يسمع حديثنا احد من شعبك . إذا لم تطلق لى الحرية الساعة فى محادثتك ، فمعنى هذا انك تخشى ان اقنعك؟

— كلا . لست اخشى شيئاً ، تحدثى بكل ماتريدين

قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من ان الحيطان ليس لها آذان . واعتدلت شهرزاد فى جلستها وقالت :

— إنى لا احب العنف فى الاقناع ، لا لأنى ديموقراطية النزعة ، فأنا كما قلت لك لست انضوى تحت حزب من الأحزاب ، ولكن تلك طبيعتى منذ القدم ، إنك ولاشك تعرف قصتى مع شهريار الغابر ، هل تذكر انى لجأت الى العنف فى إقناعه ؟

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول انك كنت امرأة خطرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذيني — الخليقة دون غيرك بحمام الدم ، فأن المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير نظام حكمه فى دولته ولو إلى الأصلح ، لهى على كل حال امرأة ثائرة على النظم .

— إنى لم أكن ثائرة ، ولم أتدخل يوماً فى سياسة شهريار ، ولم أنصحه يوماً بابرام أمر أو الأقلاع عن فعل ، إنما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل المتسلل من خصاص الأبواب ، فاذا هو يرى ما لم يكن يرى ، وإذا هو يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال إلى حال ، ومن سياسة إلى سياسة من تلقاء ذاته .

ففكر الشهريار المعاصر لحظة ثم قال :

— ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ إن شهريار الغابر كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها فى الصباح حتى كادت تنقرض من بلاد العذارى ، فلابد أن الشعب ضج وغضب وتهامس وتآمر . . اعترفى . ألم تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟

— كلا

— من يدرى . لو كان لشهريار الغابر (جستابو) فى ذلك الحين لتدارك الخطب قبل وقوعه .

— الحمد لله إذ لم يكن لديه ذلك . . لو أن هذا حدث لما كان . .

— لما كان اسم شهر زاد ظهر فى سماء التاريخ . ولما عرفت الأجيال غير اسم شهريار وحده .

— دعنا من التاريخ . إنما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب الطيب الذى حدث لذلك الملك . إنه ولا شك قد رضى عن نفسه كل الرضا يوم رأى الأشياء كما ينبغى أن ترى . .

سكتت شهر زاد وحدجت شهريار العصر بنظرة طويلة . . خفض بصره قليلا وأطرق ، ثم قال :

— إن لك يا شهرزاد أسلوباً عجيباً فى الكلام . إنك تريدين أن تلقى فى روعى أن هنالك أشياء عظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا . . . وتحاولين أن تدخلي فى نفسى الشك بمبادئى . . . ولكن فاتك أنى أضع العقل دائماً فى المحل الثانى ، والفكر فى المقام الثالث . أما المكان الأول عندى فهو للايمان . . . إنى أومن وأنا مغمض العينين موصد الأذنين مغلق العقل .

أومن بمبادئى وحدها، أومن وأومن ثم أومن . تكلمى بعد ذلك بما شئت . . .

فابتسمت شهر زاد ثم قالت فى دهاء :

— من قال لك إنى أريد أن أهز إيمانك بمبادئك . إنى جئت لأقنعك أو لتقنعنى. وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى . إنى تواقة إلى الحرية ، حرية بنى البشر أجمعين، ولقد ذهبت الى شهريار الأول عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب فى خطر . مبدئى هو الحرية لكل إنسان ولا استعباد لأى إنسان . فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان أنت أو خصومك ، هذا قولى فاغمض عينيك عنه . صم أذنيك إذا شئت ، واغلق فكرك . ولكنى أنا فاتحة عينى وأذنى لأتلقى عنك ماتقول ، وأزن ماتدلى

به ، وأتقبل الطيب من حديثك إذا وجد . ولا أكره ان اقتنع بمبادئك إذا كانت نافعة للناس . فأن المكان الأول عندى دائما هو للفكر الحر ، والاقتناع المطلق ثم الايمان بعد ذلك ، تكلم فأنا مصغية إليك . . .

واتكأت شهر زاد بساعدها على طرف المقعد ، وغرقت فيه ، ورنت إلى الشهريار بعينيها الصافيتين العميقتين فاختلج قلبه قليلا . ولكنه تماسك وقال :

— اعلمى أولا انى ذو قلب . حذار أن تقارنى بينى وبين شهريارك الآخر . إنه كان يسفك دماء العذارى ، لأنه لم يكن يعرف الحب . . أما انا فقد أدنت بحمام الدم لأنى أحب . . .

فقالت شهر زاد فى سخرية غير ملحوظة :

— امرأة ؟

فأجابها فى لهجة مثل لهجتها :

— إنى لست همجياً حتى أقدم مثل هـذا القربان لامرأة .

— إنك حقاً رقيق الشعور

— ما من امرأة عندى جديرة ان اهرق من اجلها قطرة دم . لقـد قلت لك انى ذو قلب . واى قلب ! إنه ارحب من ان يحوى إمرأة . . . انه يحوى بلدى . . .

وصمت . فابتسمت شهرزاد وقالت فى هدوء :

— كنت احسـبه ارحب من ذلك . وانه يحوى شيئاً اعظم من بلدك .

— ماذا ؟

— الانسانية .

لفظها شهر زاد فى همسة عميقة . فوجم شهريار العصر لحظة ثم قال :

— ماذا تعنين ؟

— اعنى انك لو احببت الجنس البشرى كله ، لا الجنس الآرى وحده . . لكنت اعظم الف مرة مما انت الآن ، ومما تريد ان تكون . اصغ إلىّ مليا . لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟ يدهشنى حقا ان مثلك لم تخطر له هذه الفكرة ! ان حياتك معجزة لا ريب فيها ، فلماذا لم تستخدم هـــذه المعجزة لغاية اعظم وغرض اسمى ؟! لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالانسانية كلها فيسطر لك التاريخ صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والأنبياء . ان الصفحة التى يعدها التاريخ لأعمالك اليوم ليست بذى شأن عظيم ، وقد

كتب مثلها لكثيرين من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية .. ففرحوا باكاليل النصر الحربى الذى زان جباههم ، ولم يفطنوا إلى أنها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين . ولقد ذبلت فعلا ، وهوت ، وذرتها الرياح كل تلك الفتوح التى تفاخر بها أولئك القواد العسكريون ، ذلك أن لاشىء يثبت فى الأرض وينبت الثمار الصالحة الخالدة غير البذرة الطيبة التى يلقيها فى نفوس البشر رجل يحب الأنسانية كافة . هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد لأنسان !

— إنك امرأة . ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر النصر الحربى !

— النصر الحقيق هو لذلك الذى يستطيع أن

يسير بالبشرية ولو خطوة .. ويسعدها ولو لحظة ..
إن حكمة نبي ، أو ترنيمة شاعر، أو تغريدة موسيقى ،
لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر
فى أكبر معركة حربية !

— عجباً !

— فيم العجب ؟ إن ذلك الذى يستند الى قوة الله ،
وهو النبي والرسول ، وذلك الذى يستند إلى قوة
الفكر ، وهو العالم والفنان ، لأبقى وأخلد من ذلك
الذى يستند إلى قوة الجيش ! !

شرد الشهريار بخياله لحظة . وقال كالمخاطب نفسه :

— وا أسفاه ! . لطالما تقت أن أكون نبياً .

— من أجل ذلك هاجمت الله والكنيسة !

— ولطالما تقت الى العلم والفن

— ولهذا نفيت العلماء والفنانين .

— عبقرية بلادى هى عبقرية عسكرية قبل كل شىء . . لم أفطن الى ذلك يوم قامت فى نفسى تلك القوى الجائحة تدفعنى أن أعمل شيئاً للتاريخ . . لا تنكرى يا شهرزاد أن المعجزة تتخذ لون الارض التى تظهر عليها . وأن العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التى ينبت فيها ! لا تحسبى عبقرية اوربا تصلح لابراز نبى من انبياء الشرق !

— هذا صحيح . ولكن العظيم يجب إن يثور على اوضاع بيئته وامته وعصره ، لينشر تعاليمه التى تنفع الانسانية كافة . هكذا فعل المسيح ومحمد . لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الاعلى الانسانى . وقد اضطهدا وعذبا فى

سبيل ذلك، وقد انتصرا آخر الأمر ذلك الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان .. ثق أنى لا اخدعك . إن الخلود هو لمن يعمل لخير الانسانية كلها، ولرفعة الجنس البشرى كله .. لهذا كانت غلطتك الكبرى انك احببت جنساً واحداً، وكرهت بقية الأجناس ! وعملت لرفعة شعب واحد ليستعبد بقية الشعوب !

وادرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام « المباح » ـ المباح مؤقتاً بأذن خاص من شهريار العصر ـ وسكت . ولا يدرى احد أكان سكوته لاقتناعه بحديث شهر زاد ام للتفكير فى طريقة التخلص من هذه المرأة الخطرة ! !

محاكمة طاغية

145

سألتنى إحدى الصحف الفكاهية عن رأيى فى محاكمة الطاغية وعن قضاته فأجبت :

رأيى أن خير قضاة يحاكمونه هم أولئك الذين أسميهم بعد قليل : ويحسن أن أتحدث بصيغة الماضى كما يفعل الروائيون الواقعيون فأفترض أن يوم المحاكمة قد تحدد له تاريخ ١١ اكتوبر من عام . . . (وقد اخترت هذا التاريخ بالذات لأنه يوم ميلادى أنا ولا تخر) . ولقد تقرر عقد المحكمة ، لا فى دار الريخستاغ ولا فى ساحة الأولمبياد ، بل فى حانة البيرة الشهيرة ،

حيث كان يعقد المتهم اجتماعاته الأولى التى نبتت فيها جذور أفكاره ومبادئه . وقد جاء الناس من أقاصى الأرض لحضور المحاكمة . فذهبت أنا بالطبع مع من ذهب فى ذلك اليوم المشهود . لقد احتشد الحضور فى قاعة الحان جلوساً إلى الموائد . . . وجلست هيئة المحكمة على المنصة القائمة خلف « البار » . . . ونظرت إلى القضاة فأدركت أنى أمام محكمة إنسانية لاحربية ولاسياسية . وهى فى الحق المحكمة الوحيدة المختصة بالنظر فى قضية إنسان اتهم بأنه أساء إلى بنى الانسان .

كان القضاة هم : المتصوف « غاندى » والعالم « اينشتين » والموسيقى « توسكانينى » وكان النائب العام «شارلى شابلن» : يالها من محكمة رهيبة : الروح

والعلم والفن : عناصر التقدم البشرى ! . . .

وجلس المتهم بين يدى قضاته هادئاً مطرقاً فى رداء مدنى . ولم يكن محروساً إذ لا ضرورة لسلب حريته فى دنيا دينها الحرية . ولم يكن معه محام . فرأت المحكمة أن تنتدب له من يتولى الدفاع عنه . فوقع اختيارها على شخصى الضعيف . لماذا ؟ لست أدرى . لعلها جنسيتى الشرقية البعيدة عن طرفى النزاع . أو لكتاباتى عن المتهم المشبعة بروح الانصاف ، النزهة عن التحامل . . . وقد حاولت التنصل والاعتذار . فأنا رجل هربت من المحاماة فى مستهل حياتى العملية بعد قيد اسمى فى سجلها . . . أأعود إليها اليوم مفتتحاً بمثل هذه القضية ومثل هذا المتهم . . . اللهم رحماك ! ولكن أحداً لم يرحمنى . . . ووضعوا هذه السخرة

على كاهلى . . . فوقعت على الكرسى مطرقاً إلى جانب « موكلى » . . .

التفت الرئيس « غاندى » إلى المتهم موجهاً إليه التهمة :

— أنت متهم بأنك عكرت صفاء الأنسانية وحاولت أن تعرقل تقدمها بمبادئك الرجعية ؟ أجب قبل كل شىء بنعم أو بلا . . .

— لا . . .

لفظها « موكلى » بسرعة وبدون أن يستشيرنى . . . فهمست فى أذنه :

— أنكرت التهمة ؟ حسناً فعلت !

وأشار « الرئيس » إلى النائب العام . فوقف شارلى شابلن ليتلو « عريضة » الاتهام . ولكن

الجمهور ضج بالضحك لمجرد مرآه - واحتاج الأمر إلى جهد ووقت ليفهم الناس أن هذا الممثل الساخر إنما يمثل دوراً جديداً . إنه ممثل الاتهام فى قضية الأنسانية . ووقف شابلن ساكتاً ينظر إلى الناس حتى سكتوا . ثم جلس ... فقد تذكر هو أيضاً أنه ممثل « صامت » . ولم تستطع حتى السينما الناطقة أن تغريه بالكلام . إن الكلام هو أكذوبة النفس ، واللسان هو خدعة الأنسان . وان البشرية لم تتقدم يوماً بالقول الصاخب بل بالعمل الصامت . ياللعجب ! إن أعضاء هذه المحكمة كلهم رجال لم يعرفوا قط لغة الكلام ... هذا غاندى لغته الصوم والايمان . وهذا اينشتين لغته الفكر . وهذا توسكانينى لغته الموسيقى . . وهذا شارلى لغته العاطفة ... كلهم يعملون بغير

حاجة إلى كلام ... والأنسانية سوف تسير فى موكبهم ولا شك مئات الأعوام ...

لم يتكلم شارلى . واكتفى بأن أشار للرئيس إلى صندوق يحوى شريطه السينمائى لروايته المعروفة « الدكتاتور » حيث سجل فى آخرها خطبته الرائعة عن الحرية، موجهاً فيها الخطاب الى الدكتاتورية ... تلك هى صحيفة اتهامه التى تلاها على الدنيا بأسرها ... وليس لديه اليوم حرف واحد يضيفه إليها ...

والتفت الرئيس آخر الأمر إلينا أنا والمتهم وقال :

— الدفاع ...

فوقفت وأنا لا أدرى كيف أدافع عن الطاغية ... ونظرت اليه فوجدته يرمقنى بنظرة رثاء وإشفاق . لكنى تشجعت وقلت فى صوت مرتجف حائر :

— يا حضرات القضاة ! ... إنكم تتهمون هذا هذا الرجل أنه عكر الصفاء الانسانى بأثارته أمته ودفعه إياها إلى الحروب . وبأنه حاول عرقلة التقدم البشرى ببعثه المبادىء الرجعية التى تقول بسيطرة جنس على جنس وبحق القوى فى سحق الضعيف . وقد أنكر موكلى التهمة . وهذا سوء دفاع منه . فالواقع أنه فعل كل ما نسب إليه . دون أن يعلم أنها جريمة يمكن أن يتهم بها أمام محكمتكم الموقرة . انظروا إلى هذا الرجل . إنه ليس فيلسوفاً ولا عالماً ولا فنانا ... حتى نطالبه بمبادىء مثالية تسير بالبشرية الى عالم أرقى يسوده ، التعاون والمساواة والتضامن بين جميع الأجناس ، ويخيم فيه الحب والوئام والسلام على كافة الناس . ما كان ينبغى

أن يقدم اليكم يا حضرات القضاة غير رجل مطالب بحكم واجب رسالته وطبيعة فنه، بمبادىء إنسانية عليا. لذلك أدفع بعدم اختصاص هذه المحكمة بنظر هذه القضية ...

فجذبنى المتهم من كمى جذبة شديدة وهمس فى أذنى غاضباً :

— أتريد أن تبتلينى بمصيبة ؟ ! أتريد أن يحيلونى على محكمة عسكرية ... هذه المحكمة أحسن من غيرها .. لعنة الله عليك من محام ! ...

فهمست فى أذنه :

— هذا والله ما شاهدته فى المحاكم ... ما من قضية إلا طلب فيها المحامون الدفع بعدم الاختصاص، حتى وإن كانت المحكمة فى نظرهم خير محكمة على

الأرض .

وكان الرئيس غاندى فى تلك الأثناء قد مال على العضوين يتداول معهما . . . وفرغ من المداولة . فالتفت إلىّ قائلا :

— المحكمة ترفض هذا الدفع وتطلب الاستمرار فى المرافعة . فالمتهم حقاً ليس فيلسوفاً ولا عالماً ولا فناناً . . . ولكن ذلك لا يمنع من اعتباره رجلا عظيماً . والرجل العظيم ملك للأنسانية لأنه يؤثر فى مصيرها ، أو هو بذلك مسئول عنها وعن أقدارها . وبهذه الصفة ترى المحكمة نفسها مختصة بنظر الدعوى .

فتقدمت خطوة نحو المنصة قائلا :

— يا حضرة الرئيس ! ! . . ونابليون ألم يكن

رجلا عظيما ؟ إنه فى رأيى كان فنانا حقا . . . أو على الأقل كان فى مقدوره أن يصبح من خيرة كتاب عصره لو لم يتجه إلى الحرب . إن رسائله إلى جوزفين لأدب من أروع الأدب . بل لقد ظهرت مواهبه الفنية قبل ذلك بكثير . لقد قيل إنه تقدم الى مسابقة أدبية وهو فى عامه النهائى بالمدرسة الحربية فظفر بالجائزة الأولى . . . ثم إنه - حتى فى حروبه ضد ممالك أوربا - كان يحمل فى جعبته مبادىء الثورة الفرنسية القائلة بالحرية والمساواة والأخاء . . . ومع ذلك فمثل هذا الرجل لم يقدم إلى محكمة مثل محكمتكم هذه . . .

وهنا قاطعنى عضو اليسار الموسيقى « توسكانينى » قائلا :

— من قال لك ذلك ؟ لقد صدر الحكم على نابليون من قاض تنحنى أمام مجده الرؤوس المتوجة . ذلك القاضى هو « بيتهوفن » . ألا تذكر أنه أعجب أول الأمر بالقائد « بونابرت » الذى اجتاح أوربا ناشراً مبادىء الحرية الجميلة . فألهمه هذا الاعجاب قطعته الموسيقية « سانفونية البطولة » يشيد فى ألحانها النبيلة بالبطل النبيل . فلما نسى « نابليون » رسالته الأولى وتوّج نفسه أمبراطوراً خاب أمل بيتهوفن فمزق الإهداء المقدم الى البطل الخادع . . . وجعل « المارش الجنائزى » فى القطعة لحنا داميا يرثى به البطل الأول الذى فقدته الأنسانية . . . بعد أن انقلب طاغية يطمع فى استعباد البشر ؟ ! . . أى حكم أعدل من هذا الحكم وأبقى على الدهر ؟ ! . .

واعتدل عضو اليمين العالم « اينشتين » ثم أضاف قائلا :

— هذه المحكمة مختصة إذ لا توجد محكمة أخرى تعرض عليها تهمة خنق حرية العلم وتشريد العلماء وتحريق المؤلفات ، مما هو منسوب الى هذا المتهم . وهى تهمة إن صحت لاستوجبت عقابا معنويا أقسى من أى عقاب مادى يزول بزوال المحكوم عليه . . .

وأشار الرئيس « غاندى » بيده إلىّ وقال :

— الآن . . . تكلم فى الموضوع . . .

فلم أجد بداً من الأذعان . وقد يئست من انتحال الحجج للتخلص من هذه القضية . . . لامناص إذن من الدفاع عن هذا الرجل الذى وضع مصيره فى يدى .

كيف أبدأ ... وكيف أقول ... لأنقذ موكلى وأبرئه من هذه التهم الخطيرة الشهيرة ؟ أمرى إلى الله! ما دمت وكيل هذا الرجل ليكن الله وكيلى ! وحسبى الله ونعم الوكيل ! وتنحنحت مرة ومرتين وثلاثا .. ثم قلت :

— ياحضرات القضاة ... لاشىء يؤثر فى نفسى مثل منظر عزيز قوم ذل . ما من مرة قرأت فيها تاريخ نابليون فى جزيرة سانت هيلانه إلا بكيت . ذلك الرجل الذى كانت الدنيا فى قبضته قد وضع فى جزيرة صغيرة فى قبضة سجان متعجرف وبالرغم من كل شىء فقد أصر على أن ينادوه بالامبراطور ... فناداه من حوله بهذا اللقب ساخرين كأنه ملك من ملوك التمثيل على رأسه تاج من صفيح . وكانوا

يسمحون أحيانا لبعض كبار الزوار والسائحين أن ينظروا اليه من ثقب بابه كأنه حيوان هرم فى قفص. إلى أن مات فلم يحضر دفنه غير بضعة أشخاص لا ذكر لهم ولا وزن ... تلك كانت عقوبته ... عقوبة مادية كما ترون ... وقد استوفاها ... بل وقد استدر بعدها بعض الدموع ... انها كانت غلطة ولا شك ارتكبها قضاته العسكريون والسياسيون ... لذلك اتجه الرأى إلى ترك موكلى حراً كما نرى. يعيش فى هذا العالم الحر ويبصر بعينى رأسه هذه السعادة والبحبوحة التى ينعم بها اليوم شعبه، بعيداً عن حكم الجستابو ونير الطغيان. إنكم تتحدثون عن العقوبة المعنوية. وهل هناك عقاب معنوى أفظع مما يحسه هذا الرجل الآن؟ إنه يسير

فى شوارع بلاده الفرحة المطمئنة وهو يكاد يخجل من مجرد حياته ... هو الذى قد حرم هذا الشعب من مثل هذا الفرح وهـذا الرخاء أعواماً طوالا فى سبيل أوهام ... لم يحققها الحرب وحققها السلام.

ياحضرات القضاة : هذا إنسان أخطأ التقدير قبل كل شىء ... وصدر عن فلسفة عقيمة كادت تودى حقا بالعـالم الى كارثة ... ولـكن عقوبته القصوى فى نظرى هى فشله . ليس أقسى من الفشل عقوبة لعظماء الرجال .

وجلست بين صمت الجموع واطراق القضـاة . ورفع الرئيس « غاندى » رأسه أخيراً وقال :

— قد تستعمل المحكمة الرأفة إذا تبين لها أن المتهم قد غير أفـكاره ومبادئه فى الأنسان والانسانية

وأنه أصبح مواطناً طيبا فى هذا العالم الجديد . على أن المحكمة تود لو تعرف المهنة أو العمل الذى ينوى المتهم أن يزاوله البقية الباقية من حياته !

فنهضت أقول من فورى :

— تلك فى الحقيقة مسألة دقيقة ياحضرة الرئيس . ولكنى مع ذلك أعتقد أن موكلى لا مانع لديه مطلقا من أن يعود إلى مزاولة حرفته الأولى ...

فلكمنى موكلى بكوعه وهمس :

— نقاش ؟ ! تريد لى أن أعود نقاشا كما بدأت حياتى ؟ ألا خيبك الله من محام ! ...

صلاة الملائكة

إلى أصـــدقاء الإنسانية

المنظر الأول

فى السماء . ملطفة من الملائكة

الملاك الأول ـ أنظر ، ماهذا الدخان الصاعد إلينا من الأرض ؟

الملاك الثانى ـ هم البشر يحرق بعضهم بعضاً .

الملاك الأول ـ أتراهم نسوا قول إلهنا لقايين :

« ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلىّ من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل من يدك دم أخيك ! »

الملاك الثانى ـ وما ترى الأرض قائلة وهى تفتح

اليوم فاها لتقبل لججاً متلاطمة من دماء مليون هابيل!

الملاك الأول ـ يا للويل! أو نظل نحن فى عليائنا نطل عليهم فى سكون؟

الملاك الثانى ـ وما فى مقدورنا أن نصنع لهم؟

الملاك الأول ـ نهبط إليهم لنرد إلى عقولهم الصواب، ونفتح بصائرهم على نور الحق.

الملاك الثانى ـ إنهم سكارى لا يبصرون ولا يصغون ولا يعون.

[ترتفع إلى السماء أصوات صلاة]

الملاك الأول ـ أتسمع! ما هذه الأصوات الجميلة الصاعدة إلينا من الأرض؟

الملاك الثانى ـ تلك صلاة جامعة يتوجه بها إلى السماء بعض العقلاء.

الملاك الأول ـ اصغ . إنها صاعدة من ثلاث جهات : من الشرق ومن الغرب ومن وسط الأرض أو بعد ذلك لا تريد منا أن نحرك ساكناً ، نحن أهل السماء ؟

الملاك الثانى ـ قلت لك لن تستطيع لهؤلاء البشر شيئاً .

الملاك الأول ـ وهذه الدعوات الخارجة من قلوب نبيلة ؟ أتغلق من دونها الأبواب ؟ ألا ينبغى أن تجد إلى أسماعنا سبيلا وفى أرواحنا مستقرا ؟ يالقسوة أهل السماء إن ردوا هذه الدعوات وصدوا هذه الصلوات ، وتركوها تسقط على رؤوس أصحابها الراكعين أصداء باردة جوفاء ! إنى ذاهب بمفردى .

الملاك الثانى ـ تهبط اليهم ؟

الملاك الأول ـ نعم ، ملبيا النداء . واذا لم أستطع لهم شيئا . فلأعش على الأقل بينهم أحمل نصيبا من العذاب مثل فرد منهم ؛ فرد من بسطاء الشعب لا يملك غير قلب .

الملاك الثانى ـ أخشى عليك منهم ؟

الملاك الأول ـ لا ينبغى لك أن تقول ذلك . وداعا !

الملاك الثانى ـ الى الملتقى !

المنظر الثانى

غابة فى أوربا . الملاك الأول فى هيئة قروى بسيط يجلس على حافة جدول تعبا حائرا

الملاك ـ آه . ها هنا على الأقل مكان لا تلاحقنى فيه أصوات التدمير والتخريب والانفجار . لقد صدق رفيقى . إن مجرد الهبوط إلى هذه الأرض كالنزول إلى أسفل طبقات الجحيم !

(يسمع صوتا فى ماء الجدول فيصيح) :

— من هنا ؟

« تظهر فتاة فقيرة من بين الاشجار تحمل متاعها

وفى يدها إناء ملأته من الجدول »

الفتاة ـ (فى خوف) من أنت ؟

الملاك ـ أنا . . . أنا آت من المدينة .

الفتاة ـ أنا أيضا آتية من المدينة . إنك فيما أرى تعب . تسمح لى أن أقدم اليك قليلا من ماء الجدول؟

الملاك ـ لا . شكراً لك . إنى متعطش إلى قليل من الهدوء .

الفتاة ـ ها هنا مكان هادىء .

الملاك ـ نعم .

الفتاة ـ سأذهب لئلا أزعجك .

الملاك ـ بل ابقى واجلسى وحدثينى أيتها الفتاة . لماذا تهيمين وحدك فى هذه الغابة الموحشة ؟

الفتاة ـ [تدمع عيناها] لم يبق لى أهل

الملاك ـ لا تبكى .

الفتاة ـ ماتت أمى مريضة ولم نكن نملك ثمن الدواء . وقد لحق بها أبى . أما أخوتى فأخذتهم الحرب ولا أدرى أفى الأحياء هم أم فى الأموات .

الملاك ـ ولماذا يقتتلون ؟

الفتاة ـ لست أدرى .

الملاك ـ وماذا أنت صانعة ؟

الفتاة ـ أود لو أجد عملا ارتزق منه . ألا تستطيع أن تعطينى عملا يا سيدى ؟

الملاك ـ أنا ؟ !

الفتاة ـ معذرة . ربما كنت أيضاً مثلى تبحث عن الرزق . هناك كثيرون مثلنا لا يجدون طعاماً ولا دواء ولا مأوى .

الملاك ـ وا أسفاه !

الفتاة ـ ماذا بك يا سيدى ؟

الملاك ـ لاشىء

الفتاة ـ صوتك ضعيف ووجهك شاحب . انك جوعان من غير شك

الملاك ـ لا تهتمى لأمرى

الفتاة ـ (تخرج من حقيبتها تفاحة) كل هذه التفاحة . لقد قطفتها فجر اليوم من شجرة تفاح برية فى مدخل الغابة . إنها لم تزل خضراء ولكن عصيرها حلو شهى .

الملاك ـ (ينظر إليها طويلا) ؟

الفتاة ـ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

الملاك ـ (يتناول التفاحة ويبقيها فى يمينه) شكراً

لك أيتها الفتاة !

الفتاة ـ لماذا لا تأكل ؟

الملاك ـ لقد طعمت ورويت

الفتاة ـ متى ؟

الملاك ـ الآن . من رحمة قلبك

الفتاة ـ بل كل. إن الرحمة وحدها لا تكفى طعاماً لنا

الملاك ـ إنها هى كل طعامى وشرابى

الفتاة ـ آه يا صديقى الطيب القلب . أتأذن لى أن أدعوك صديقاً !

الملاك ـ إنك لتضيئين روحى بالفرح

الفتاة ـ هلم نسير معاً فى هذه الغابة لعلنا نهتدى إلى بغيتنا. عفواً . ما أشد أثرتى . إنى ما سألتك عن حالك .

الملاك ـ إنى . . إن بغيتى هى أن أراك فى خير . هلمى نسير . ما أجمل الأرض لو استطاع الأنسان فيها أن يبصر وأن يحب وأن يجعل الرحمة تتدفق من نفسه تدفق الماء من هذا الجدول . .

الفتاة ـ أنظر أيها الصديق . هذا الطير الأخضر الذى يرد ماء الجدول . إن بجانبه أرنبا وحشيا. أتراه؟ إنه خلف العشب . وأنه يشرب هو الآخر . لكأنى بهما صديقان .

الملاك ـ نعم . نعم . .

الفتاة ـ اسمع . الآن وقد احتسى الطير من كأس النهر . ها هو ذا يفتح منقاريه ويغرد . .

الملاك ـ وهذا الأرنب لم يقفز ولم يهرب . إنه كالمعتاد الاصغاء الى صديقه . انظرى إلى أذنيه وقد

تفتحتا كأنهما زنبقتان ؛ وعينيه وقد لمعتا كأنهما فيروزتان !

الفتاة — أتدرى ماذا يقول هذا العصفور ؟

الملاك — لا يمكن أن يكون فيما يقول غير الخير والسلام والأمل .

الفتاة — أصبت . إنه يخاطب هذه الزهرة البرية التى ما زال يقطر منها الطل :

(تغنى) يا بسمة الصبح للكائنات
هذا الندى ليس قطرة ماء
يا زهرة الأمل للكائنات
إن دمعك دمع السماء

الملاك — غنيها مرة أخرى ...

الفتاة — ماذا بك ؟ أرى فى عينيك عبرة تلمع أيها الصديق !

الملاك — غنى مرة أخرى : « إن دمعك دمع السماء » أصبت . أصبت يا صديقتى اللطيفة !

الفتاة — (تنظر اليه ملياً) رباه ! !

الملاك — لماذا تطيلين النظر إلىّ !

الفتاة — لست أدرى

الملاك — لاتراعى . هلمى . نسير . هاتى يدك !

الفتاة — إنى لم أسألك عن اسمك ؟

الملاك — وأنا أيضاً لم أسألك عن اسمك . ما نفع الأسماء . لقد عرفت عنك كل ما ينبغى أن أعرف..

الفتاة — وأنا أيضاً . .

(يسمعان صوتاً يقترب)

الملاك — من المقبل ؟

الفتاة — (تنظر) هذا راهب فيما أرى

(يظهر راهب يحمل متاعه فوق منكبيه)

الراهب — من أنتما؟

الملاك — من أين أنت قادم أيها الراهب؟

الراهب — من الويل الاكبر والليل الأبهم والخطب الاعظم الذى حاق بالبشر. هنالك حيث يمطر الأنسان أخاه الأنسان ناراً محرقة دونها نار جهنم!

الفتاة — إجلس يا ابى إنك متعب.

الراهب — اسقينى شربة من ماء

الفتاة — (تسقيه من الأناء وتعطيه تفاحة من حقيبتها) اشرب واطعم واهدأ نفساً

الملاك — لماذا يقتتلون؟

الراهب — (وهو يأكل) لأنهم يعبدون اليوم إلهاً جديداً يحل قتل الشعوب ويأمر بشريعة الأقوى.

إلهاذا مخالب وانياب مصفحة بالصلب والفولاذ

الفتاة — نعم ، يالبلاء !

الملاك — وانت ايها الراهب . ماذا تنتظر للذود عن الاله الحقيقى الذى يأمر بشريعة العدل والمحبة والأخاء البشرى ! ؟

الراهب — بماذا اذود ؟

الملاك — بسلاحك القدسى : الحق .

الراهب — الحق ! انى انتظر إلى ان ينبت للحق انياب .

الملاك — لن ينبت للحق انياب . ولا ينبغى له . لأن الحق نور ينفذ الى القلوب .

الراهب — اما سمعت ان سلطة « القوة » تطفىء اليوم كل نور ، سواء ما اشع فى المدن او

الطرقات أو القلوب ؟

الملاك ـ أهذا كلام رجل الدين ؟

الراهب ـ من أين أنت هابط أيها الرجل ؟ إن الأديان ذاتها قد وقعت اليوم فى يد القوة الطاغية تدعى حمايتها وتضع عليها رايتها كأنها قطع من الأرض !

الملاك ـ لا تدع الشك يداخلك فى صميم رسالتك أيها الراهب . فياضيعة الآمال إذا حدث ذلك . إن كل هذا التقتيل والتحريق والتدمير الذى أصاب الأرض لأقل خطراً عليها من تدمير الايمان بسلطان الحق !

الراهب ـ (يطيل النظر إلى الملاك) من أنت أيها الرجل الساذج !

الفتاة ـ لاتختلفا . خير لنا أن نتجه ثلاثتنا صوب

السماء وأن نسألها المعونة على إطفاء نار الشر وإقرار الخير بين البشر .

الراهب ـ أنت أيضا أيتها الفتاة البسيطة ، تحسبين السماء تسمع أصواتنا الثلاثة الضعيفة وهى التى لم تسمع دوى المدافع وانفجار القنابل !

الفتاة ـ أحقاً قد تخلت عنا السماء يا أبى ؟ أو قد تركتنا وجها لوجه امام قسوتنا ووحشيتنا وآثامنا ؟ أما من رجاء ؟ أما من عزاء . تكلم ايها الراهب . يا أبتاه . متى نستطيع ان نهتف من قلوبنا : « ترنمى ايتها السموات وابتهجى ايتها الأرض ، لتشد الجبال بالترنم ، لأن الرب قد عزى شعبه وعلى بائسيه يترحم »

الراهب ـ كفكفى دمعك ايتها البنية !

الملاك ـ نعم . ابسمى ايتها الصديقة اللطيفة .

الفتاة ـ أنت أيضا فى عينك دمعة .

الملاك ـ ابسمى وغنى .

الفتاة ـ (باسمة) اغنية الزهرة البرية ؟

الملاك ـ نعم .

الفتاة ـ (تغنى) :

يا بسمة الصبح للكائنات
هذا الندى ليس قطرة ماء

الملاك ـ (مكملا) :

يا زهرة الأمل للكائنات
إن دمعك دمع السماء

الراهب ـ (يصيخ السمع) اصغيا . ألا تسمعان حفيفاً بين الشجر ؟

الفتاة ـ نعم !

الملاك - (ينظر) هذا رجل هائم على وجهه

الراهب - إنه طريد آخر

(يظهر رجل يحمل متاعه وعصاه ويترنح قليلا)

الرجل - (يقف أمام الثلاثة متأملا) فتى وفتاة وراهب ! وإذا اجتمع راهب وفتى وفتاة فمعناه زواج يعقد ! ؟ أأنا مخطىء أيها السادة ؟ ولقد كان ينقصكم واحد : الشاهد (يشير إلى نفسه) وقد حضر . وخمر وكؤوس (يخرج زجاجة وكأساً من بين متاعه) وقد حضرت !

الراهب - من أنت أيها المخلوق ؟

الرجل - عالم فى الكيمياء

الراهب - أو كل سكير يحمل زجاجة يستطيع أن يدعى علم الكيمياء ؟

العالم ـ أو كل من يحمل زجاجة تستطيع أن تدعوه سكيراً أيها الراهب !

الراهب ـ أو تطمع فى أن أدعوه قديساً ؟

العالم ـ إن دعوتنى كذلك فانك لن تعدو الحقيقة بكثير . ولكنى أكتفى منك بأقل من ذلك . ادعنى فقط « رجلا ذا ضمير »

الراهب ـ إنك فى عرف السماء رجل مرتكب لمعصية .

العالم ـ آه ، دعنا من قاموس حرفتك وكلماتك المحفوظة أيها الراهب . حسبك الفتى والفتاة (زبونين) فصب على رأسيهما مما فى جعبتك . أما أنا فاتركنى وشأنى . فأنى ما جئت هذه الغابة إلا لأنى رجل ذو ضمير . ألا تصدق ؟ ألا تصدقون جميعاً ؟

الملاك ـ إنى أرى نقاء ضميرك .

العالم ـ ها هو ذا رجل طيب القلب كريم النفس . إليك وحدك يا هذا أوجه الكلام . فأنى واثق من أنك تفهمنى . أما بقية الناس ...

الملاك ـ نعم . إنى أفهمك

العالم ـ ثق قبل كل شىء أنى عالم فى الكيمياء

الملاك ـ إنى اثق

العالم — الآن هات يدك وخذ كأسا

الملاك — لا . لا . شكراً ... إنى لست عطشان

العالم — (يجرع) أما أنا فأريد أن املأ رأسى خمراً لأقتل العلم غرقا . لا تحسب أنى خرجت عن وقار العلماء . لم يبق للعلم ولا للعلماء وقار ...

الملاك — لماذا ؟

العالم — تلك قصة طويلة لم اجىء لسردها الآن لا تذكرنى بما كان أيها الرجل .

الملاك — ربما استطعت لك شيئا

العالم — انت !

الملاك — إنى رجل بسيط ، ولكنى استطيع ان افهمك . لأنى احس ما فى نفسك . واتألم لألمك .

العالم — (يلتفت اليه وينظر مليا) من انت ؟ إنك فيما ارى رجل فقـــير بائس شريد ! نعم . انا ايضا تألمت لك يوما لك ولأمثالك من ملايين البائســـين . ومن أجل ذلك طردونى واضطهدونى . ومن اجل ذلك أنا الآن معكم فى هذا المكان .

الفتاة — من أجل الفقراء والبائسين !

العالم — جميعا . وأنت معهم . وهذا الراهب أيضا . لقد أنفقت عشرين عاما افكر فيكم . عشرين عاما أضع مشروعا لاسعادكم أيتها المخلوقات المسكينة. إن العلم كان يستطيع القضاء على شقائكم . وإزالة جوعكم ومرضكم وعريكم . وإبدال جحيمكم جنة واسعة. لقد أوصلتنى الكيمياء إلى نتائج عظيمة بنفقات مقبولة . ولكن . . إليكم المهزلة : جاء يوم فاذا الزعيم الطاغية يطلبنى ويقول لى : « اطرح من رأسك هذه البحوث الخرافية ووجه علمك إلى طريق المجد » فقلت له : « وما هو طريق المجد ؟ » فأجابنى صائحا : « نريد قنابل قنابل ، نريد مدافع مدافع ، نحن نريد من كيميائك أن تحول لنا اللبن إلى قنابل والزبد إلى مدافع ، وأنت تريد أن تحول اللبن والزبد إلى

أفواه الحمقى والمغفلين امثالك ايها العالم الأخرق ! »

الملاك — اللهم رحماك !

العالم — أرأيتم كيف تبدد حلمى أيها الأخوان ؟ والآن ها أنذا قد فقدت إيمانى بسمو رسالة العلم ! آه لعنة الله على العلم الذى يرضى أن ينتزع الطعام من أفواه البشر ليضعه فى أفواه المدافع ! (يجرع كأسه)

الملاك — لا ينبغى أن تيأس

الراهب — أيها الرجل الساذج . متى يكون اليأس إذن ؟

الملاك — مهلا . مهلا . لاتفزعوا كل هذا الفزع أمام قوة الشر

العالم — أيها الفتى إنك لاتدرك مدى قوة الشر . إن عوداً واحداً من الثقاب يستطيع أن يحرق مدينة.

وان طاغية واحداً ألهب أمته بحمى التدمير وألقى بكل مالها فى إعداد أدواته قد استطاع أن يلهب فى عين الوقت جيرانه بالعدوى ، فجيران جيرانه ثم العالم أجمع . وإذا كل بلاد الأرض تلقى كنوزها وغذاء أبنائها فى هذا الأتون . وإذا مليارات المليارات تتدفق من مشارق الأرض ومغاربها فى هذا السبيل الجهنمى . لم تعد الأنسانية جمعاء تفكر فى غير آلات الخراب . وانفاق مليارات المليارات من أجلها . وأنا الذى كنت أحلم بمليار واحد لأسعاد البشر أجمعين . كل أنهار الذهب التى تنبع من قلب الأرض تصب الآن منصهرة لتحطيم الأرض . هذه الحمى الخبيثة التى أصابت الآدميين كافة هى ككل حمى منشؤها جرثومة . جرثومة واحدة فى شكل طاغية . دخل جسم الدنيا

الهادئة المطمئنة فأحدث فيها تلك الافرازات السامة والاهتزازات الهستيرية التى قد تؤدى بها إلى الانحلال فالاحتضار فالموت .

(يسمع صوت انفجار)

الفتاة — (منفزعة) ماهذا ؟ أتسمعون ؟

العالم — تلك قنبلة سقطت فى الغابة

الراهب — صه ! اسمع أزيز طائرات . . .

الفتاة — الهى ، أو لن يتركوا حتى الغابات النائمة الباسمة .

الراهب — (ينظر إلى السماء صائحا بقول الكتاب المقدس) « استيقظى ! استيقظى . البسى درع القوة يا ذراع الرب . استيقظى كما فى أيام القدم . . . ألست أنت طاعنة التنين ؟ الست أنت مجففة البحر

ومياه الغمر العظيم، الجاعلة اعماقه طريقا لعبور المفديين؟»

الملاك — (مرتلا) انا. انا هو معزيكم، من انت حتى تخافى من إنسان يموت ومن ابن الانسان الذى يجعل كالعشب!»

(انفجار يدوى دوياً عظيماً)

العالم — إليكم قنبلة انفجرت قربنا!

الراهب — هلموا نختبىء قبل ان تصيبنا شظية.

العالم — لن اختبىء. يريدون حياتى. فليأخذوها فقد اخذوا خير ما فيها وهى حريتى العلمية.

الفتاة — وانا ايضا لن اختبىء. فقد اخذوا اهلي

الراهب — وانت ايها الفتى؟

الملاك — انما انا هنا فى خدمتكم

الراهب — لست انا اذن الذى يبكى جسده. فلنثبت

جميعا . وليأخذوا إذا شاءوا هذه الرمم والاشلاء

العالم — صدقت . هى رمم واشلاء بعد ان تجردت من الحرية والتفكير والعقيدة والايمان والهناء بل . . حتى الآدمية جردونا منها . كل شىء اخذوه ليجعلوه وقودا لتلك النيران التى اشعلوها كى تظهر أسماءهم الخاملة مضيئة فى عين التاريخ

الراهب — التاريخ ! التاريخ هذا الدين الذى صنعتموه أنتم بأيديكم أيها العلماء وملأتموه بخمر الانتصارات الدموية لتسكروا به اولئك السفاكين والطغاة فأفرغوه من أفواههم بدورهم فى نفوس الرعايا والشعوب !

العالم — وأنتم يا رجال الدين ، ألم ترضوا أحيانا أن تخلعوا أردية القداسة على مجازر أولئك

السفاكين والطغاة !

الملاك — كفى تنابذاً ! لماذا لا تتفقان ؟ كلا كما مؤمن . وكلا كما راهب . فما الدين إلا إيمان القلب وما العلم إلا إيمان العقل !

العالم — أصبت . كفى تنابذاً بين العلم والدين منذ مئات السنين !

الملاك — آه لو اتحد العقل والقلب من قديم ضد الغريزة الحيوانية لكان للأنسانية اليوم شأن آخر .

الراهب — لقد سخروا منا طويلا هؤلاء العلماء وقالوا إنهم فوق الأنسانية لأنهم يبحثون عن الحقيقة

العالم — ليس هنالك علم فوق الأنسانية . تلك عقيدتى دائما . ولقد قلتها لزملائى يوم حاكموني وجردونى من شاراتى وألقابى العلمية وقبلوا أن يخدموا

الطغيان . صحت فيهم : ينبغى ان يكون العلم إنسانياً وإلا وقع فى الحيوانية . لأن ما خرج من يد أحدهما وقع فى مخلب الآخر . ولا شىء ولن يكون شىء غير ذلك فوق هذه الأرض . آه ، إنكم لا تدركون مدى قوة الشر . أتعلمون كم بلغت تكاليف الحرب الكبرى الماضية؟ اسمعوا قول زميلى الدكتور بطلر الأمريكى الذى قضى سنوات يجمع الاحصاءات . لقد ذكر فى تقريره الذى قدمه لمؤسسة روكفلر أن ما أنفق على تلك الحرب فى سنواتها الاربع لو انه صرف فى التعمير بدلا من التدمير لكان من المستطاع أن يخصص لكل أسرة فى العالم منزل صغير بحديقة جميلة ، وأن تنشأ فى كل مدينة يزيد سكانها على عشرين ألفاً مكتبة نفقاتها مليون جنيه وجامعة نفقاتها مليون

جنيه أيضاً ثم يبقى بعد ذلك مبلغ عظيم يكفى لانشاء المستشفيات فى كل بقاع الارض ! ولكن .. ولكن البشر لم يجرؤوا بعد على تحمل بعض هذه النفقات من أجل خيرهم وسعادتهم !

الملاك — هات يدك ايها الراهب

الراهب — ما ذا تفعل ؟

الملاك — اضعها فى يد هذ العالم

الراهب — نعم . ضعها فى يده . إلهى الذى فى السموات . إنى احس ايمانى الكامل يعود الى قلبى كما تعود النعجة الضالة إلى الحظيرة ! . . .

الملاك — ثق يا اخى الراهب ان القلب والعقل وهما الملكتان النورانيتان العلويتان فى الانسان لا يمكن ان يمكثا طويلا فى اسر المخالب والانياب .

الراهب ـ من أنت أيها الفتى ؟ ينبغى أن تقول لنا من أنت ؟

الملاك ـ أنا ... إنى ذاهب . ينبغى أن أذهب الآن ... لأصنع شيئاً آخر ...

العالم ـ أو تترك الفتاة ؟

الملاك ـ إنها بينكما فى سلام وأمان

الراهب ـ أو لا تنتظر حتى نعقد لك عليها كما قال أخونا العالم ؟

الفتاة ـ (تدمع عيناها) إنى لست به جديرة !

الملاك ـ (تدمع عيناه) يا زهرة الأمل لا تبكى فأن دمعك دمع السماء !

الفتاة ـ وداعاً !

الملاك ـ (يلوح إليها بالتفاحة فى يمينه) . ياشجرة الحب للكائنات . لن تفارقنى تفاحتك . ولا ذكراك يا ألطف المخلوقات !

« يختفى » ...

المنظر الثالث

قاعة مؤتمر . الطاغيتان واقفان وعندهما يتأملان خريطة للدنيا فوق مائدة والأبواب عليهما مغلقة

الطاغية الأول ـ (يشير بأصبعه إلى جزء من الخريطة) أريد أن أسود هذه الأمم والشعوب !

الطاغية الثانى ـ (يشير الى الجزء الآخر) وأنا أسود هذه الأمم والشعوب !

(يظهر الملاك من خلف إحدى الستائر)

الملاك ـ الأمم والشعوب خلقها ربها حرة لا تقتسم ولا تستلب كما تقتسم الغنائم والأنعام !

الطاغيتان ـ (مذعورين) من هذا ؟

الملاك ـ كيف نسيتما قول الله فى التوراة : « ها إنى أرفع إلى الأمم يدى وإلى الشعوب أقيم رايتى ، هل تسلب من الجبار غنيمة ، وهل يفلت سبى المنصور. فانه هكذا قال الله ، حتى سبى الجبار يسلب وغنيمة العاتى تفلت. وأنا أخاصم مخاصمك وأخلص أولادك وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم كما من سلاف ... »

الطاغية الأول ـ كيف دخل هذا الرجل ؟

الطاغية الثانى ـ (همساً) صه . لا تتحرك !.. فى يمينه قنبلة يدوية صغيرة على شكل تفاحة !

الطاغية الأول ـ فهمت .

الطاغية الثانى ـ (للملاك) وبعد ؟ نحن فى خدمتك

الملاك ـ بل أنا الذى فى خدمتكما ، إذا رضيتما أن تفتحا قلبيكما قليلا لرحمة السماء !

الطاغية الأول ـ إنك لا شك أخطأت المكان الذى تفهم اليوم فيه هذه اللغة !

الملاك ـ إنى لم أيأس بعد من فهمكما إياها .

الطاغية الأول ـ بل ينبغى أن تيأس سريعاً . فأن لدينا الآن لغة أخرى وكتباً مقدسة جديدة أملتها روح شعبنا الجديد ومطالب حياته .

الملاك ـ ما هى مطالب الحياة لشعبكم الجديد ؟

الطاغية الاول ـ أن يسود على بقية الشعوب والاجناس

الملاك ـ وأن يسود عليه هو الشقاء والجوع والظلام!

الطاغية الأول ـ إنه مستعد لبذل التضحية .

الملاك ـ بذل التضحية لمن ؟ لك أنت أيها الطاغية

لأن تلك هى مطالبك أنت لا مطالب الشعب . إذ لا يمكن لشعب أن يطلب من أعماق نفسه حقاً هذه المطالب . إن ضمير الشعب أبسط وأنقى من ذلك . إنما السيادة والجبروت والطغيان هى مطالب الغرور التى تنبت فى رأس رجل واحد . فيسخر شعبه المسكين كله لتحمل أعبائها ويسأله التضحية ويعطيه ثمنها هذه الألفاظ التى تسكره ولا تشبعه . من هو الشعب الحقيق غير ذلك الحطاب فى الغابة والفلاح فى الحقل والعامل فى المصنع والتاجر فى الحانوت والزوجة فى البيت . أهؤلاء يطمعون فى أن يسودوا الشعوب والأجناس . لماذا ؟ . إنما كل مطالبهم من الحياة أن يجدوا طيب الغذاء وراحة البال والضمير وصحة الجسم والعقيدة وحرية القول والعمل والتفكير

مطالبهم الحقيقية فى الحياة أن يسودوا الشقاء الآدمى لا أن يسودوا اخوتهم الآدميين . وما كان أيسر تحقيق آمالهم النبيلة لو انكم أيها الطغاة أردتم حقاً إسعادهم هم . ولكنكم لا تريدون غير إسعاد أنفسكم أنتم بالاستيلاء على ما تحسبونه تيجان المجد الذى يزين جباهكم المظلمة !

الطاغية الأول ـ (همساً لزميله) هذا رجل خطر !

الطاغية الثانى ـ (همساً) لو خاطب الشعب بهذا الكلام ؟ لكن كيف تركه رجالك حراً حتى الساعة ؟

الطاغية الأول ـ (الملاك) هذا كلام بديع . من أنت أيها الرجل ؟

الملاك ـ إنى ... رجل غريب . آت من بعيد .

الطاغية الأول ـ (همساً) لحسن الحظ !

الطاغية الثانى ـ (همساً) إن فيه مع ذلك لسذاجة تدعو إلى الاطمئنان . تستطيع أن تضغط على زر الجرس الدانى من أصبعك . لكن مع الحذر . . .

(يفعل ذلك ويفتح الباب ويدخل بعض الأتباع)

الطاغية الأول ـ (مشيراً الى الملاك) هذا السيد النبيل زارنا على غير انتظار ومن غير دعوة . . .

كبير الأتباع ـ كيف دخل ؟

الطاغية الأول ـ هذا ماينبغى أن تجروا فيه تحقيقاً .

كبير الأتباع ـ (يحيط مع رجاله بالملاك) اتبعنا .

الطاغية الثانى ـ عجباً . إنه لم يقاوم !

الملاك — ماذا هم صانعون بى ؟

الطاغية الأول — (ساخراً) ماصنع بالمسيح قبلك !

الطاغية الثانى — (ساخراً) تمجيداً لقدرك وقدر

رسالتك التى بلغتنا !

الملاك — آه « لكن هذه ساعتكم وسلطان الظلام » !

الطاغية الأول — (لتابعه) لا ينبغى لهذا الرجل أن يخالط الشعب لحظة . استجوبوه استجواباً سريعاً واعدموه .

الطاغية الثانى — حاذروا مما فى يده اليمنى .

كبير الاتباع — (يقبض على يمين الملاك) هذه تفاحة

الطاغية الأول — حقيقية ؟

كبير الاتباع — نعم . وما زال عليها ندى الصباح

الملاك — (فى تضرع) لا تأخذوهـــا منى .

لا تأخذوها منى !

المنظر الرابع

محكمة عسكرية

الرئيس — (للملاك نافد الصبر) وبعد ؟ ألا تريد أن تجيب ؟

الملاك ـ لقد أجبت .

الرئيس ـ اصغ إلىّ . من واجبى أن أنبهك مرة أخيرة إلى سوء المصير إذا أصررت على إخفاء الحقيقة .

الملاك ـ أنا أخفى الحقيقة ؟ لماذا ؟ إنى لا أعرف كيف تخفى الحقيقة ؟

الرئيس ـ لقد سألتك عن اسمك . ما اسمك ؟

الملاك ـ اسمى ؟ الحقيقة انى لم أفكر فى ذلك . لم يكن لدى وقت لاختيار اسم من الأسماء ، لقد كان ما يشغلنى أعظم من ذلك وأجل . ومع ذلك ما الفرق بين اسم واسم ، كل الاسماء سواء . اختر لى من الأسماء ما تشاء .

الرئيس ـ (يلتفت إلى أعضاء المحكمة حوله يائساً) ووطنك ؟ جنسيتك ؟

الملاك ـ عجباً ! هذا أيضاً شىء لم أفكر فيه . إنما أنا على هذه الأرض الجميلة وكفى . ما الفرق بين بقعة وبقعة ، وجنس وجنس . كل البقاع والأجناس سواء . اختر لى من البقاع والأجناس ما تشاء .

الرئيس ـ (يلتفت إلى من حوله هازاً رأسه) وأهلك ؟

الملاك ـ أهلى ! عجباً . لماذا تسألوننى هذه الاسئلة الغريبة ! أهلى ؟ كل النـــاس أهلى . لأن كل بنى الأنسان إخوة . حتى أنتم يا من تحاكمونى . أنتم أيضاً أهلى . إنى أحبكم كلكم . لأنى أحب بنى الأنسان .

الرئيس ـ كيف دخلت قاعة الزعيمين ؟

الملاك ـ كما دخلت هذه القاعة . وكما دخل هـذا الضوء (يشير إلى شعاع الشمس الداخل من النافذة)

الرئيس ـ لقد كان حول المكان حراس .

الملاك ـ لم أر حراساً ، ولم يمنعنى أحد من الدخول .

الرئيس ـ ولماذا دخلت ؟

الملاك ـ لأفتح قلبى الطاغيتين .

الرئيس ـ (هامساً للأعضاء) لقد اعترف أخيراً .

(يلتفت إلى الملاك) تفتح قلبيهما ؟ بأى سلاح ؟

الملاك ـ بسلاح الحق المضىء .

(الرئيس يهز رأسه خائب الأمل)

الرئيس ـ ألم يكن معك سلاح آخر ؟

الملاك ـ لا أستطيع أن أحمل غيره .

الرئيس ـ حمل هذا السلاح على كل حال يكفى وحده لأدانتك . هل لك شركاء ؟

الملاك ـ نعم .

الرئيس ـ (يتناول القلم فى رجاء) أملى على أسماءهم.

الملاك ـ ضع اسمك فى المقدمة

الرئيس ـ (وقد فوجىء) ماذا تقول ؟

الملاك ـ وضع أسماء هؤلاء الأعضاء من حولك وهؤلاء الحراس والجنود وبقية أفراد هـذا الشعب

وجميع الشعوب . لن تجد ورقا يتسع لكافة الاسماء . . كل من له قلب شريك لى . لأن كل قلب يترنم فى أعماقه بعين الكلمات وينشد عين الأناشيد . ولكن الآذان لا تسمع من هذا شيئاً لأن هنالك لحظات ، يطغى فيها صوت الشر على كل الأصوات !

(الرئيس يتشاور همسا مع الأعضاء)

الرئيس ـ (ملتفتا الى الملاك) ألديك دفاع آخر تبديه ؟

الملاك ـ دفاع عمن ؟

الرئيس ـ عن نفسك بالطبع .

الملاك ـ نفسى ؟ أيتها السموات عجبا ! أأنا جئت لأدافع عن نفسى !

الرئيس ـ إذن قد انتهت محاكمتك . قررت المحكمة العسكرية اعتبار المتهم خطراً على الأمن وسلامة

الدولة وحكمت بأعدامه رميا بالرصاص قبل غروب شمس هذا النهار.

الملاك — (كالمخاطب لنفسه فى دهشة) خطر على الأمن وسلامة الدولة ذلك الذى يقول للناس: حبوا بعضكم بعضا!

الرئيس — (فى شبه سخرية وهو ينهض) ان المحكمة تأسف لعدم تشرفها بوضعك على الصليب. فالصلب ليس عقوبة مقررة فى قانون المحاكم العسكرية!

[المحكمة بكامل هيئتها تنفض]

الملاك — (بين الحراس يائسا) إلهى! ما هؤلاء البشر الذين يعدون الحض على تآخيهم جريمة لاتغتفر!

المنظر الخامس

أمام طابور الاعدام

الضابط — « للملاك » ؟ تطلب شيئا ؟

الملاك — لا . شكراً لكم .

الضابط « لاحد الجنود » عصب رأسه !

(يتقدم الجندى بعصابة سوداء ليخفى رأس الملاك وعينيه)

الملاك — « يقصيه عنه برفق » لماذا تحجبون عنى منظر الأرض الجميلة فى اللحظة الاخيرة ؟

الضابط — إنما نحجب عنك منظراً آخر .

الملاك — منظركم وأنتم تسفكون دمى ! حتى هذا

المنظر لا ينبغى أن تحجبوه عنى . فأنى أعرف كيف أحبكم على الرغم من ذلك وأرثى لكم . أنتم أيها الجنود الذين يصفونكم دائما « بالشجعان » ! تمويها وتضليلا ليخدعوكم عن حقيقة الحياة الأنسانية ، ويغروكم بحياة الكواسر فى الغابة : « تقتلون وتُقتلون » ذلك كل عملكم « المجيد » ! وتلك كل حياتكم التى يريدونها لكم على هذه الأرض التى لا تبصرون جمالها ولا تسمعون غناءها لأنهم يغطون رؤوسكم وعيونكم بهذه الخوذات الثقيلة !

الضابط — « صائحا » كفى ، كفى . أمستعد ؟

الملاك — مستعد . اللهم اشهد انى قد صنعت من أجلهم ما استطعت !

الضابط — « يلحظ يد الملاك » ماذا تحمل فى يمينك ؟

الملاك — «يرفع يده بالتفاحة فى حرص وخوف» لا تأخذوها منى !

الضابط — تفاحة ؟ ما تصنع بها الآن ؟

الملاك — «متوسلا» إنها خير ذكرى أحملها من الأرض !

الضابط — « ينظر فى ساعته » أزفت الساعة !

« ويصيح فى الطابور فيرفع الجنود بنادقهم ويصوبونها إلى صدر الملاك » .

الملاك — اللهم اشهد انى لم أرد تركهم ولا التخلى عنهم ، إنما هم . . .

« ينطلق الرصاص الى فؤاده فيقطع عبارته . . . »

المنظر السادس

في السماء . ترائيل الملائكة وصلاة من أرجاء السماء

الملاك الثاني ـ «للملاك الأول» عدت الينا سريعاً!

الملاك الأول ـ « ويل لساكني الارض . إن إبليس نزل اليهم وبه غضب عظيم عالما أن له زمانا قليلا » .

الملاك الثاني ـ ألم أقل لك إنهم لن يصغوا الينا وإنك لاق منهم ما لقيت .

الملاك الأول ـ « ناظراً الى التفاحة في يده » آه . . . لكن مع ذلك . . .

الملاك الثانى ـ ما هذه التفاحة ! أنت أيضا طردوك من الأرض بتفاحة كما طرد آدم من السماء !

الملاك الأول ـ « هامسا مترنما » يا شجرة الحب للكائنات . إن دمعك دمع السماء .

الملاك الثانى ـ ماذا بك ! إنك تعود الينا بوجه غير الذى ذهبت به .

الملاك الاول — « يصغى » ما هذه الأصوات والتراتيل !

الملاك الثانى ـ تلك صلاة يقيمها رفاقك الملائكة من أجلك . فقد علموا أنك على الارض فى خطر .

الملاك الاول ـ من أجلى أنا يصلون ؟ ألا فلتكن صلاة الملائكة أجمعين من أجل أهل الأرض المساكين !

213

فهرست

فهرست

صفحة

تمهيـــد ٩

تلميذ الموت ٧٣

الانتصار الخالد ٩٧

شهر زاد مع شهريار العصر ١١٩

محاكمة طاغية ١٤٣

صلاة الملائكة ١٦١

Restored through a grant from

The Cartwright Foundation

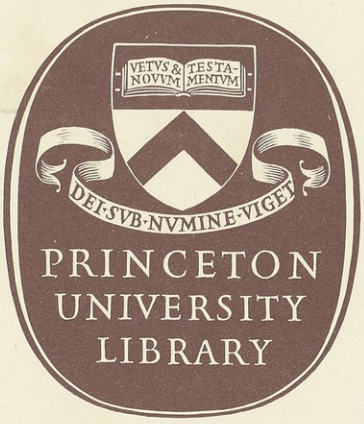

BOUND BY HNM

Princeton University Library
32101 072539123